احمد حسين شرف الدين

البداية

من حياتي ورحلاتي

١٩٧٠

مقدمة

هنالك الكثير من النابهين العرب ، وأدباء الشرق والغرب ، ممن كتبوا حياتهم أروع كتابة ، ووصفوا أعمالهم أبرع وصف ، فكان ذلك تتويجاً لجهودهم ، وتكميلا لخلود آثارهم . ولكنهم يختلفون فى طرائق عرضها ؛ فمنهم من ينتحى الجانب الفنى فتراه يحذو حذو الرسام البارع الذى يخترع المناظر الفاتنة ويتخير الألوان المنسجمة التى تبوىء لوحته المكان اللائق بها فى معرض الفن الجميل ؛ ومنهم من ينتحى الجانب الأدبى فهو يحاول إتحاف قارئيه بأن يتوخى التعابير الرنانة والكلمات الفخمة والجمل المنتقاة .

أما أنا فقد جعلت هدفى من كتابة حياتى تحقيق غرضين ؛ أولهما طرح أعمالى السابقة فى حياتى قبل طرحها فى موقف العرض بعد مماتى لتكون نصب عينى وفى متناول يدى ، فأستخلص منها عبراً وأستقى منها دروساً تنير لى الطريق فيما تبقى من سنى عمرى ؛ إذ الحياة — فى نظرى — بمثابة رأس المال لا يمكن التحكم فى باقيه إلا بعد مناقشة ما ذهب منه

وبالتالى فإننى عند ما نظرت فى قائمة مذكراتى وجدت فيها ما يصلح لأن يكون أنموذجاً لما يستوجب تغييره فى مجتمعنا الذى أصبح على عتبة المنطلق بعد حقبة سادت فيها الحيرة والإرتباك .

ومن ثم فقد حشرت فى هذه « البداية » كل ماجريات حياتى السابقة خلال ما يقرب من ثلث قرن من الزمن ، ولم أقتصر فى عرضها على جوانب محددة بل حشرتها كلها . . . حلوها ومرها . . . غثها وسمينها .

ولما كانت أتراحها تغلب على أفراحها ، وكآبتها تطغى على بهجتها — وهذا هو ما سوف يلمسه القارئ — فهى كثيراً ما تفيد أولئك المكدودين مثلى ، فقد يجدون فيها مستروحاً لهناتهم ، وعزاء لما اعتورهم من صعاب فى مسالك حياتهم .

وسـيجد القارىء — فى كتابى — كثيراً من الجوانب السيكولوجية ، غير أنها فى حاجة إلى تحليل مجرد نزيه ، سواء ما كان منها وجدانياً أو اجتماعياً أو تصويرياً . . .

وإذا كان قد قيل بأن الكلمة قد تغير من تأريخ أمة فإننى لآمل فى أن هذا الكتاب المتواضع سوف يفتح مجالا أوسع لدراسة أحداثنا التاريخية دراسة تمكننا من حل مشاكلنا الخلقية والاجتماعية على أيدى المصلحين .

— ١ —

ولدت بصنعاء فى ١٣ سبتمبر سنة ١٩٢٨ من مواطنين متوسطى الحال، وكان أبى ضابطاً بالجيش وكان حينذاك برتبة ملازم ثان إذ لم يمض على تخرّجه من المدرسة الحربية غير ثلاثة أعوام، وكان قبل ذلك يقيم مع أشقائه وأسرته فى « حجّة » موطن أبيه وأجداده .

وكان الميراث الذى خلفه جدى من الكفاية بحيث يكفل له ولأشقائه العيش الهنىء فى مسقط رأسه ، لولا أن جدتى — وكانت تنتمى إلى أسرة ثرية فى صنعاء — لم يطب لها المقام هناك بعد وفاة جدى فباعت كل ما خلفه من متاع وعقار ورحلت إلى صنعاء تجر وراءها أبناءها الأربعة ، وانضوت معهم فى ذرى أخيها الذى كان حينذاك أميراً للواء البيضاء .

وارتحل أبى إلى « البيضاء » ليحظى برعاية خاله عن كثب، وفيها تلقى الدروس الابتدائية ، ثم تعلم الرماية والفروسية ، واشترك فى بعض المعارك التى كان يثيرها الاستعمار البريطانى

ولا ذاكر اول شيء سمعته فى حياتى غبر ذلك الاسم المخيف «القوقر»

عبر الحدود ، وفى سنة ١٩٢٥ عاد إلى صنعاء ليلتحق بالمدرسة الحربية .

أما أمى فكانت من أسرة تقطن مدينة « ثِلاَ » ، وقد جاءت إلى صنعاء ضمن أسرة أخيها الذى كان زميلاً لأبى فى المدرسة الحربية ، وقد تزوجها أبى قبل أن يتخرج .

ولم يقدر لى أن أعرف خالى لأنه ما كاد يتخرج من المدرسة الحربية ويلتحق بفرقة المشاة حتى أُرسل مع كتيبته للاشتراك فى معركة « القوقر » أثناء الحرب التى كانت دائرة حينذاك بين جيش الإمام يحيى وقبيلة الزرانيق وفيها لقى مصرعه .

وأصيبت أمى بصدمة عنيفة جعلتها — ولمدة طويلة — عاجزة عن احتمال مصابها فى خالى ، وكان يتجلى عجزها فى تلك الدموع التى كانت تذرفها والزفرات التى تصعّدها ، ولا أذكر أول شيء سمعته فى حياتى غير ذلك الاسم المخيف « القوقر » الذى انطبع بخطوط غائرة على ذاكرتى ، فما إن أسمعه حتى تجتاحنى ذكريات كئيبة .

وكانت دارنا بحارة الصَّياد ، وفيها نشأت مع أخى الذى كان يصغرنى بعامين نشأةً منسجمة نوعاً مّا إلا أنها كانت لا تخلو من مشاجرة فى بعض الأحيان ، ذلك أن أمى كانت

تؤثره بحنانها الفيّاض الأمر الذى كان يزيد من حدّة الشجار فيما بيننا .

وكثيراً ما كنت أحرص – إن هى عاقبتنى بسببه – أن أردّ له الصاع صاعين ، وكان الوقت المناسب الذى أستطيع أن أصفّى حسابى معه هو عند ما نكون خارج البيت .

ولكن هذا الوضع لم يدم طويلاً إذ سرعان ما تحول ذلك الصغير من مستسلم بليد إلى مقاوم عنيد ، كما تطور الشجار فيما بيننا من مشاكسات صبيانية متقطعة إلى عراك عنيف متلاحق .

وفطن أبى لما يجرى – وكان ممن يؤمن بأن المساواة أهم عوامل الوئام فيما بين الأبناء – فأخذ يطبق هذا المبدأ فى حكمة ورفق حتى تمكن من إعادة الصفاء فيما بيننا .

* * *

ولما بلغت السادسة من عمرى أخذت أذهب إلى الكُتّاب ، وبدأت دراستى بحفظ الحروف الهجائية على الطريقة العتيقة : « ألف : لاشىء له . . . باء : نقطة من أسفل . . . تاء : نقطتان من أعلى . . . » وأتممتها دون أن أعرف منها شيئاً سوى أنها خطبة أو أنشودة ، ونقلت إلى : « بسم : باء ، سين ، ميم . الله : ألف ، لام ، هاء . . . » .

ومنها نقلت مباشرة إلى صف القرآن ، وبدأ سيدنا يحشر لى تلك السور فألتهمها التهاماً دون أن أفهم شيئاً من آيها سوى أنها مجرد كلمات منسقة وسطور مرصوفة .

ولما كان سيدنا يتقاضى من أبى ريالاً على كل جزء يلقننى إياه بطريقة تشبه الهذيان ، فكان لا يهمه سوى أن أعرف كيف أسرد تلك الآيات أياً كان السرد ، وأن أنطق تلك الكلمات كيفما كان النطق ، وربما تخطى بى بعض السور كى يبلغ بى نهاية الجزء .

على هذا النمط العشوائى ختمت القرآن فى ظرف عام ونصف فقط لقاء خمسة وعشرين ريالاً دفعها أبى مجزءة فى كل شهر ، بالإضافة إلى تكاليف الختم التى كبدته ضعف هذا المبلغ دون أن يحس بأى حرج مما تكبده نظراً لدخله الذى كان يعتمد على مرتبه الضئيل ، بل إنه قد أصبح فى غمرة من الغبطة لأن ابنه قد ختم القرآن .

وفاته أنه قد نسى كيف يقرأ سورة منه بمجرد مرور الأسابيع الأولى من العطلة الدراسية إلا عندما استدعاه ذات يوم ليقرأ له فى سورة يوسف فإذا به قد نسى كل شىء فلم يستطع قراءة آية فيها ، وحاول أن يمتحنه بسورة عبس فإذا به لا يعرف شيئاً لأن سيدنا لم يقرئه إياها بل ولا ما قبلها ولا

ما بعدها ، وهنا ثار الشيخ وأزبد ، وأبرق وأرعد ، وأقسم لينتقمن من سيدنا الماكر وليعاقبنه بيده .

أما بالنسبة لى فما هو إلا أن نزع القاوق[1] من فوق رأسى وأخذ ينهال به ضرباً عليه ، وكان سطحه من الصلابة بحيث جعلنى أتصور أن طبقاً مقلوباً يرتطم على دماغى ، ولم تنقذنى إلا أمى التى أسرعت فى الحال واجتذبتنى إلى مخدعها .

وفى صباح اليوم التالى أمرنى أبى بحمل المصحف والاتجاه معه إلى منزل سيدنا ، ودلفت أسعى وراءه وقلبى يكاد ينخلع خوفاً ، إذ بدأت أحس بدنو المعركة التى ستنشب بعد لحظات بين أبى وسيدنا ، الأمر الذى دفعنى — وبصورة لا إرادية — لأن أستدير إلى الوراء وأطلق لقدمىَّ العنان ، فى الوقت الذى كان أبى ينعطف متجهاً نحو الشارع الذى يقع فيه منزل سيدنا .

ولم أعرف بعد ذلك ما كان سوى أنى قد اتجهت فى سرعة الريح مخترقاً الشوارع والمنعطفات المؤدية إلى منزل عمى . وما إن بلغته حتى وجدتنى فى غمرة من الغم والقلق حيث

---

(١) القاوق : قلنسوة محشوة بالقطن كان يرتديها الصغار فى صنعاء ولا زال يرتديها الكبار من أهل العمائم .

أخذت أتصور توقف أبي وهو يقترب من منزل سيدنا ثم يلتفت ليجدني قد اختفيت وكأنما ابتلعتني الأرض أو عرج بي إلى السماء .

وأقبلت عمتي تسرّي عني وتخفف من روعي ، واصطحبتني في الظهر إلى أبي الذي كان قد ترك كل شيء حتى عمله الوظيفي باحثاً عني ، وما إن رآني حتى اجتاحه العطف الأبوي فأشرق وجهه وتهللت أساريره ، ثم تناولني إلى حجره وأخذ يغمرني بحنانه وقبلاته . وأنبأني بأنه قرر نقلي من كُتَّاب سيدنا الماكر إلى مدرسة الإصلاح ، ووعدني بتنفيذ قراره هذا في مطلع العام الجديد .

* * *

— ٢ —

لم يكن فى صنعاء حينذاك أماكن عامة يُزجى فيها الأطفال أوقات فراغهم غير تلك الأزقة المليئةُ أرضُها بالتراب والقاذورات وسماؤها بعبير البالوعات ، فلم يكن بها حدائق للأطفال ولا نوادٍ للتسلية ، بل كان لا يوجد فى المدينة بكاملها مقهىً واحدٌ غير تلك السماسر المظلمة المعدة لنُزُل الوافدين من أهل الأرياف ، أما الملاهى والفنادق والسينماءات فكان وجودها فى اليمن مما لا يخطر على قلب بشر .

ويحكى فى هذا الصدد أن أحد المهاجرين اليمنيين الأثرياء فى أوربا ، كان قد عرض على الإمام يحيى مشروع بناء دار للسينما بصنعاء ، فأجابه الإمام بالموافقة إلا أنه اشترط عليه شرطين ، أولهما : أن لا يعرض إلا أفلاماً دينية وثانيهما : أن لا يتقاضى أى أجر من المتفرجين ؛ قال هذا على جهة التبكيت وإلا فمذهبه كسر وإحراق كل آلات الملاهى على الإطلاق .

على أنى لا أستطيع أن أعرف كيف أن صاحب هذا العرض لم يفكر فى أمر الكهرباء إذ كانت حينذاك بالنسبة

لسكان اليمن من الأساطير المشابهة لأسطورة وقوف إنسان على سطح القمر كما هى فى نظر بعضهم اليوم ، فلم يعرفوها إلا فى مطلع النصف الأخير من قرننا العشرين .

وبالضرورة كانت الشوارع المزدحمة بالمارّة هى الملاعب الوحيدة لأبناء صنعاء يقضون فيها معظم نهارهم إما فى لعبة الاستغماية أو كرة اليد أو كرة العصاء أو غير ذلك .

وكثيراً ما كانت المشاكل تثور بين الأبناء لأبسط التوافه فتستحيل إلى خناقات بين الآباء لا ينهيها إلا الاشتباك والضرب بالعصيّ ، وأحياناً تتحول إلى مبارزات جماعية بين أبناء هذه الحارة وتلك فيتواعدون إلى أماكن معيّنه بضاحية صنعاء ، فيأتى كلٌ متأبطاً صميله[1] ، مرتدياً جرمه[2] ويبدأ اللقاء بالمبارزة الفردية ، وبعدها يلتحم الجمعان ، وتسفر المعركة عن نتائج غير مستحبّة .

وقد حظيت بالاشتراك فى عدة حفلات من هذا النوع ، ومهما نسيت فلا أنسى حينما كنت أعود إلى بيتنا بعد عراك مرير

---

(١) الصميل : فى لهجة صنعاء الهراوة القصيرة .

(٢) الجرم : فرو قصير كالبالطوه ، ومنه ما يكون مربعاً أو مستطيلا ويستعمل كدثار ويسمى فى بعض الجهات « خطة » وفى البعض الآخر « قطيفة» .

لم يدع فى جسمى مكاناً إلا وفيه ضربة هراوة أو عضة ناجذة ؛

وبعد أن صرت قادراً على تقدير الأمور وهضمها أفلا كان يجدر بى أن أحمّل مسئولية هذا السلوك الأرعن غير الآباء الذين كان لا يهمهم من أمر أبنائهم سوى أن يلعبوا ما يريدون ويذهبوا حيثما يشاؤون ؟ ؟ .

ولما كانت « بئر العزب » مليئة بالحدائق الخاصة والبساتين فكثيراً ما كان الأطفال والمراهقون يتخذون من تسلّق جدرانها وسرقة ثمارها ملهاة لفراغهم ؛ ولقد كنت — بحكم نزواتى الصبيانية — أحد هواة هذه اللعبة الرعناء ، بالرغم مما كنت أجنى أحياناً من مخاطرها .

وأذكر أنى تسلقت ذات مرة جدار أحد البساتين لأملأ جيبى[1] من هذا الرمان الحلو اللذيذ ، وقفزت إلى داخله دون أن أفطن لتلك المجموعة من بنات الحارة اللاتى كنّ قد تجمعن للّعب فى حوية[2] صغيرة متفرعة من نفس البستان ، وكانت سيدة من سكان الدار قد لحظتنى من شباكها فأوعزت إلى البنات بالإحاطة بى ، وبينما قطفت بضع رمانات على عجل

(١) الجيب : فى لهجة صنعاء قد يطلق على الفراغ الواسع بين الحزام والصدر ويطلقون عليه أحياناً « العُبّ » .

(٢) الحوية : فناء البيت .

وهاكم قصة أخرى من مغامراتى الصبيانية

وأخذت أتهيأ لتسلق الجدار إذا بى أفاجأ بطابور البنات يندفع نحوى وقد أخذن يصفقن ويزغردن يحاولن إرباكى ، وكان ثقل الرمان قد أعاقنى عن تسلق الجدار بسهولة ، وبالرغم من ذلك فقد تمكنت من الاقتراب من قمته ، ولم يبق أمامى للنجاة غير لحظات ، ولكن إحداهن — وكانت طويلة — تمكنت من الإمساك بى وحملى على عاتقها ثم إلقائى إلى الأرض كما تُلقى الجوالق .

وصرت بينهن أحير من ضبّ ، لكننى سرعان ما اهتديت إلى خطة للخلاص ؛ فقد اتخذت — بعد أن انتحيت إلى عرض الحائط — من تلك الرمانات قذائف فرقت بها جموعهن بينما لذت بالفرار ونجوت بجلدى .

وهاكم قصة أخرى من قصص مغامراتى الصبيانية :

لقد كان لى زميل من جيراننا شديد الطيش كثير التخلف عن الكُتَّاب ، ومن أجل ذلك حُمِّل قيداً صغيراً من الحديد ، وأُمِر بعدم مغادرة الكُتَّاب ، فقرر ذات يوم الهرب ، وأدى به طيشه إلى حملى على التواطؤ معه .

فغادرنا الكُتَّاب متسلقين سياجه الشامخ بعد أن فككنا حلقة واحدة من حلقتى قيده ، واتجهنا كذئبين مسعورين نحو ضاحية صنعاء .

ويالها من كارثة عندما أدرت بصرى . . .

وبينما كنا على مقربة من سور المدينة راقت لنا فكرة كانت حلوة حال استلهامها ولكنها كانت جد مرة إبّان تنفيذها ؛ لقد سُوِّل لنا أن نغير على بستان يقع وراء السور كان مكتظاً بالأشجار وأطايب الثمار ، ولما كان السور منيعاً فقد اهتدينا إلى فتحة للمياه تقع فى أسفله تمكنا من المروق خلالها والاتجاه نحو شجرة الخوخ ، وبينما كنا منهمكين فى تجريد الشجرة من ثمارها إذا بالبستانى يكتشف أمرنا .

ويا لها من كارثة عند ما أدرت بصرى لأراه يداهمنا ! لم أملك عندها إلا أن أطوّح بنفسى من أعلى الشجرة إلى الأرض ثم أنطلق بكل قواى صوب الفتحة يتبعنى زميلى .

ومرقت منها مروق السهم ، ولكن البستانى كان قد اقترب ، وكان فى إمكان زميلى النجاة لولا أن الخوخ الذى اكتظ به جيبه كان أكبر عائق له ، وما هى إلا لحظات حتى كانت سلسلة القيد المتدلية برجله قد أصبحت فى قبضة البستانى ، وعندما كنت أجره من الخارج كان البستانى يجتذبه من الداخل ، وبينما ظل يطلق صرخاته المريعة إذا بى أتشبث بيديه فى عزم وتصميم ، ولكنى لم أجد بداً من إطلاقهما بعد أن ناشدنى ذلك ، وبعدها قام البستانى بسحب زميلى « الفاضل » إليه وأداء واجبه نحوه على خير وجه .

- ٣ -

ما إن حلّ موعد الدراسة حتى كنت قد انخرطت فى سلك التلاميذ بمدرسة الإصلاح للسنة الدراسية ١٩٣٤ ، وكانت هذه المدرسة إحدى المدارس النموذجية فى صنعاء ، ولهذا اختير لها المدرسون الأكفّاء فى القرآن والخط والحساب وعلوم الدين ، وقد أصبح التدريس فيها وفى غيرها إلزامياً ، وكان يوم الخميس هو يوم النزهة ، ففيه تخرج المدارس إلى ضواحى صنعاء ، وقد ارتدى كل طالب ثيابه الجديدة ، وهناك يُعقد الحوار وتُغنّى الأناشيد ويتبارى الطلاب فى ألعابهم الشعبية وتمارينهم الرياضية .

وكثيراً ما كانت تقام حفلات «ختم القرآن» ، فتمر المدرسة أو المدارس فى بعض الشوارع الرئيسية مرتلين أناشيد الختم وهى :

طه أحمد نور الكون جمالهْ   به نسعد صلى الله عليه وآلهْ

وقد ارتدى المحتفل به ويسمونه « الخاتم » الجوخ[1] والقلنسوة الذهبية وأُركب مع اثنين أو ثلاثة من إخوته أو زملائه على ظهور الجياد ، وإذا كان من أسرة الإمام أو أحد الوزراء فتشترك الموسيقى فى موكب الزفاف ، ويعود الموكب نحو دار الخاتم حيث توزع الجعالة[2] ، وقد يؤتى بغرايرها إلى المدرسة لتوزع محلياً نزولاً عند اقتراح الأساتذة ليتمكنوا من الحصول على الكمية النافعة ، ولما كان من المعتاد أن يؤتى بمراقب يشرف على توزيعها على الطلاب فكان بعضهم لا يعجز عن اختراع بعض الحيل للحصول على المزيد منها بتجنيد عدد من التلاميذ ممن يجيدون النصب والاحتيال لصالح الأستاذ .

* * *

وتخرجت من مدرسة الإصلاح وأنا فى سن الثانية عشرة منقولاً إلى المدرسة الثانوية ، ويومها كان أبى يرابط مع كتيبته بتعز ضمن لواءين من الجيش الدفاعى كانا قد حُشدا بناء على طلب من الأمير أحمد الذى كان حينذاك أميراً للواء تعز ، وكان ذلك نتيجة لما كان يتوقعه من قيام تحركات

---

(١) جبة واسعة من الجوخ وتعرف فى مصر بالزرجيّة .

(٢) خليط من التمر والزبيب والحلوى والحمص وغيره .

عبر الحدود على إثر نشاط الأحرار اليمنين فى عدن وجريدتهم صوت اليمن .

واحسست يومئذ بشوق يلتاعنى لزيارة أبى فقررت السفر إليه خفيةً من أمى ، ولما لم يكن هناك وسيلة للسفر إلى تعز غير الراحلة(١) ، ولا أملك فى جعبتى غير مرتب(٢) ذلك الشهر الذى قبضته لأول مرة بعد التحاقى بالثانوية ؛ فقد قررت السفر مشياً على قدمىّ .

وفى صباح يوم ١٥ يونيو ١٩٤٠ كنت أغادر باب اليمن متجهاً إلى تعز حاملا على كتفى رزمة صغيرة من الكتب تضم بعض المبادئ فى اللغة الإنكليزية كان قد أهداها لى أبى ، ولما لم أجد فى صنعاء شخصاً واحداً يعرف هذه اللغة ليعلمنى إياها ، فقد ظننت أننى سأجده فى تعز ، فكان هذا أعظم حافز لى على تنفيذ مشروعى .

وقد بدت لى فكرة الفرار — وأنا أمارسها لأول مرة فى حياتى — هيابةً نوعاً مّا إلا أنها أخذت تغمرنى بهجتها كلما توغلت فى الطريق .

---

(١) كانت السيارات لاتمر إلى يريم إلا نادراً لوعورة الطريق .

(٢) كان مجرد ريالين ونصف .

وكانت حذائى من البلاء بحيث لم تقو على الصمود فى وجه الصخور الحادة فلم أصل قرية « حزيز »[1] إلا وكانت قد تقطعت إرباً ، وهممت بالعودة إلى صنعاء لولا أننى كنت قد سمعت الحكمة التى تقول بأن التصميم أساس النجاح وأن الصبر شرط فى التغلب على المصاعب ، وقررت أن أحصل على خف مهما كلف الأمر ، واهتديت إلى إسكافى غير أنه لا حذاء معدّة لديه تصلح لى ، وقال لى إنه فى إمكانه صنعها فى خلال ساعات ، واتفقنا على أن يأتى بها فى الصباح ، ولحسن الحظ أنه لم يطالب منى ثمنها مقدماً إذ لو كان ذلك لأخفقت فى طلبى إذ لم أكن أملك فى كيسى غير ما ذكرت وهو مبلغ لا يكفى لقوتى .

وأويت إلى مقهاية[2] المسافرين ، واكتفيت فى عشائى بكسرة رغيف كانت أمى قد زودتنى بها حال مغادرتى لمنزلنا الذى بارحته قبل إعداد الفطور معتذراً بأن ثم ما يدعو لحضورى مبكراً إلى المدرسة .

وبت فى المقهاية دون دثار يقينى برد « حزيز » القارس ، وجاء الإسكافى فى الصباح ومعه الحذاء ، ولما حان وقت دفع

---

(١) قرية تبعد عن صنعاء ٧ كيلو مترات جنوباً .

(٢) المقهاية : النزل .

الثمن تظاهرت بالارتباك ، ثم رأيت أن خير شيء هو أن أفضى إليه بحقيقة حالى ، وعرضت عليه ردائى الذى كنت أحمل فيه كتبى مقابل ثمن الحذاء ، وصادف أن ذلك الإسكافىّ كان شهماً فقد قبل الرداء — رغم بلائه — لقاء ثمن الحذاء بكل طيبة خاطر ، وزاد على ذلك أن منحنى حبلاً حزمت به كتبى .

وأخذت أغذّ السير نحو « معبر » فى حذائى الحديدة ، وقبل اقترابى من معبر رأيت من الحيطة أن أعرّج على قرية « موسطة جهران » لأبيت بها ، خشية أن تكون السلطات فى معبر قد أبلغت من صنعاء تلغرافياً بالقبض علىّ وإرجاعى .

ولم أجد بالموسطة نزلاً للمسافرين لأنها نازحة بعض الشيء عن الطريق ، كما وأن المسافرين بين صنعاء و « ذمار » يبيتون فى «معبر » فلا يأوون إليها ، لذلك قررت الاتجاه أولا إلى مسجد القرية لأداء العشاءين ، لأنى أصبحت — بالرغم من صغر سنى — أومن بأن الصلاة قائد خير علاوة على أنها واجبة ديناً ، ولهذا فلم أقطع فرضاً منها منذ عرفت نفسى حتى فى أحلك الأوقات وأقسى الأزمات .

وبالفعل كانت النتيجة بديعة ورائعة ؛ فما إن غادرت

المسجد حتى رأيت مجموعة من البَتَلَة[1] يتجهون نحو دار شيخ القرية فسرت فى زمرتهم ، وما كادوا يلجون الدار حتى حذوت حذوهم ، وانتهى بى المطاف فى ديوان الشيخ ، وكان طويلاً ومظلماً إلا من نور خافت ، وقد سرنى هذا لئلا يُرى وجهى وهو يتضرَّج خجلاً من تطفُّلى .

وبعد قليل كان شيخ القرية قد أقبل متأبطاً مشرعته الطويلة[2] ، وبعد أن حيَّا الحاضرين وأخذ مكانه جيئ بمصباح أكبر .

وبمحض الصدفة كنت قد جلست قريباً من مكانه ، وما كاد يستقر حتى أخذ يرمينى بنظرات تنم عن استغرابه ، ثم حيّانى وقد عرف أننى قادم من صنعاء ؛ ذلك أن بزتى لتكاد تكفى للقيام بدور التعريف بى ، فهذا القميص الطويل يتوسطه حزام من الجلد ، وهذه الطاقية الواسعة وهذه الصدرية التركية الصغيرة لا يرتديها جميعاً إلا أبناء صنعاء ، وقد أخذ يسألنى فى رفق عن إسمى ووجهتى فأجبته عن كل ذلك . وخيل إليه أننى قد نلت حظاً لا يستهان به من العلم ، ولذا أخذ

---

(١) البتلة : جمع بتول ، وهو الفلاح فى اللهجة اليمنية .

(٢) المشرعة : عود من الخشب يركب فى طرفه حجر من الفخار يوضع فيه التنمباك ويعرف فى مصر بالشبك .

يمطرنى بأسئلة دينية وشرعية بحيث لو كان الهادى والشافعى فى مكانى لما وسعهما إلا أن يبحثا لنفسيهما عن مخرج .

وامتدت أعناق الحاضرين يتعرفون على هذا الطارئ الصغير ، وما إن استسمنوا انهجاقى حتى اشتركوا جميعاً فى الغوص لاستخراج لآلئى وأصدافى ، وكنت لا أزال خاوى الرأس إلا من ركام مهوّش من المعارف التى كنت أسترق سمعها من وراء حلقات الدرس بمسجد بئر العزب ؛ فقد اضطررت إلى استخدام ألمعيتى وخيالاتى فى ثقة واطمئنان إذ الأعور أمير فى مملكة العميان .

ووجد كل منهم المجال خصباً لإفراغ ما فى جعبته من الأسئلة فمنهم من أخذ يسأل فى البيع ومنهم من يستفتى فى الطلاق ومنهم من يناقش فى الشفعة فكنت أجيب بما أعرف وما لا أعرف ، ولم يتردد أحدهم فى النهاية فى أن يطلب منى تعبير رؤياه فلم اتلكأ فى أن أجعل من نفسى إبن سيرين آخر .

وكان فيهم من لا يعرف صنعاء ويعتبرها إحدى جنات الخلد ، ووجد الفرصة مؤاتية لأن يحيط بكل شىء عن دُورها وشوارعها وحماماتها ومساجدها وبساتينها وقبور الأولياء والصالحين وغير ذلك مما اطلقت فيه للسانى العنان ليحسن الوصف ويحكم التصوير ويجيد التنميق وكأنى هيرودوت جديد .

وكنت على أتم الاستعداد للسمر معهم إلى نهاية الشوط لولا أن الجو المعتم الذى كاد يخنقنى بدخان التمباك الأسود ورائحته الكريهة ، والجوع الذى بدأ ينهش أحشائى بأنيابه الحادة ؛ أقول لولا ذلك لما كان لبحر هذيانى المستمر أمامهم أن ينتهى طالما كانت سيول أسئلتهم لم ينضب لها معين .

وما هى إلا لحظات حتى سمعت جلبةً على باب الحجرة وإذا به العشاء قد أقبل وفى الوقت المناسب : غطاء واسع من الخوص يتوسطه جفنة ضخمة أقيمت فى وسطها صومعة العصيد(1) الناصعة البياض الهرمية الشكل ، يحف بها حوض متدفق من مرق الضأن . وسرعان ما شكلنا دائرةً حول هرمنا اللذيذ الذى أخذ — بفعل الخمس اللطاف(2) — يتلاشى ثم يغيب ليحل محله اللحم الذى وُزِّع مشفوعاً بأقراص القُرَم(3) ، وكانت تلك — بالنسبة لى — من ألذ الأكلات وأشهاها .

وبعد فترة السمر القصيرة حظيت بخطّة (4) نمت فيها حتى الصباح عندما ودّعتُ هذا الشيخ المضيافَ الذى زودنى بالقليل النافع من نصائحه وخبزه .

---

(1) العصيد : عجين الذرة يطبخ على الماء ثم يكوم فى جفنة ويسميها بعض أهل اليمن « صوامع » أو « دعائم » .

(2) يعنى الأصابع الخمس .

(3) القرم : خبز الذرة .

(4) الخطة : قطعة مربعة أو مستطيلة من الفرو الطويل الشعر .

— ٤ —

لم يحن عصر اليوم الذى غادرت فيه صنعاء حتى كان نبأ هروبى قد انتشر فى حارتنا وانبثّ أبناؤها فرادى وجماعات يجوسون الشوارع ويطرقون البيوت بحثاً عنى ، وكادت أمى أن تختبل ، ولما لم يجدها البحث شيئاً سوى القنوط اتصلت بخالى الذى أبرق فى الحال إلى كل المدن التى سأعبرها .

ولم أدخل قرية « معبر » بل مررت عبر بساتينها الغربية متجهاً إلى « ذمار » يهزّنى شوق غامر للقاء أبى ، ولم يحدّ من تباريحى إلا عندما عرفت أننى لا أزال بعيداً عنه كل البعد إذ لم أقطع بعدُ إلا ربع المسافة .

وجعلت من نشائدى الوطنية التى حفظتها فى المدرسة وترانيمى الدينية التى كانت جدتى كثيراً ما ترددها أبدع أحدية أزجى بها سيرى ، ولكن نشيدى سرعان ما كان ينقطع بمجرد أن تجتاحنى فكرة عذبة أداعب بها خيالى ثم أنقلها إلى فمى ليفرغها فى قالب حدائى جديد . وكثيراً

وفى غمرة من الاعياء اضطررت الى تسليم نفسى

ما كنت أطاق لهواجسى العنان لتشيد لى قصوراً فى الجوزاء ..

على هذا المنوال كنت أواصل سفرى دون أن أحس بضنك وعثائه ، وكان علىّ أن أمعن فى السير إلى مدينة ذمار لابيت فيها ، ولكنى فضلت — لنفس السبب الذى أوضحته — أن آوى إلى قرية الدّرب الواقعة على يمين الطريق والتى لا تبعد عن ذمار أكثر من فرسخ واحد ولكننى ما كدت أخطو بضع خطوات فى طريقها حتى وقعت فيما كنت أجهد نفسى على أن أظل حذراً منه ؛ فقد لحظت سيارة لورى قادمة من ذمار فرأيت — بدافع الفضول — أن أعود إلى قارعة الطريق لأكون على مقربة منها عندما تمر من أمامى .

ولشدّ ما كان ذعرى عندما رأيتها تقف على بضع خطوات منى ، وإذا بجنديين مدججين يمرقان من بابها الخلفى ويتجهان نحوى . لم أملك حينذاك إلا أن استدير وأطلق لقدمىّ العنان نحو قرية « الدّرب » فى سرعة الريح ، وطفقت أجرى بكل قواى بينما ظل الجنديان يتبعانى ، وكان أهل القرية قد خرجوا من مساكنهم ليشاهدوا تلك الدراما فى دهشة وامتعاض ، ولكنهم ما لبثوا أن أحدقوا بى بعد أن طلب الجنديان منهم ذلك ، وفى غمرة من الإعياء اضطررت إلى تسليم نفسى بأن ارتميت على الأرض وارتمى الجنديان معى ، وبقينا هنيهةً نلهث ونستردّ أنفاسنا .

وقد اطلقهما للقبض علي

كان الجنديان من رفقاء عامل[1] ذمار الذى كان فى نفس السيارة ، وقد أطلقهما لإلقاء القبض عليّ ، بينما ظل يشهد الموقف من نافذته مطلقاً صيحاته المدويّة بين آونة وأخرى محرضاً الجنديين بتعقبي حيثما وليّت ومتوعداً لهما إن أنا أفلتّ .

وكان قد عرفني بمجرد أن رآني واقفاً على قارعة الطريق ، ولمح فيّ تلك الإمارات التى أبلغ بها فى برقية وردت إليه من خالى ، وأكّد له ذلك سائق السيارة الذى كان يعرفنى حق المعرفة لأنه كان أحد جيراننا .

وجيء بى إلى العامل الذى تفضل وأجلسنى بجانبه وأخذ تارةً يلاطفنى فى دهاء ويضحك من موقفى مع الجنديين ، وأخرى يوجّه إلى بعض التقريع .

وسألنى فى مكر عما إذا كنت مقتنعاً بالعودة إلى صنعاء فتظاهرت له بالاقتناع التام .

ووصلنا « معبر » قبل الغروب حيث أنزل العامل بدار الحكومة بينما أودعت فى مركز الحرس . ولم يطمئن العامل إلى ما أبديت له من اقتناعى بل صار يكرر أوامره بمراقبتى والاحتفاظ بى .

---

(١) يطلق أهل اليمن على حاكم المنطقة الادارى اسم « العامل » وعلى حاكمها الشرعى اسم « الحاكم » .

وظللت أسير مشدوها كالأعفر المروع

وفي الصباح كان الناس ينتظرون خروج العامل ، ولم يبق أمامنا غير لحظات قليلة حتى نغادر إلى صنعاء ، وكنت مصمماً في قرارة نفسي على أن لا أعود إلى صنعاء مهما كان الثمن ، فقد تعودت أن أسير في تصرفاتي على النمط الذي رسمته ، وهذه القاعدة أفادتني كثيراً في حياتي فقد أمدتني بروح التصميم والنضال من أجل بلوغ هدفي رغم أي تيار معاكس ، شريطة أن لا يكون البدء إلا بعد تمعن ودراية إذ لا سبيل إلى نجاح بدونهما .

وانتهزت فرصة تجمهر الناس في فناء الحكومة واشتغال الحرس بتفريقهم ودلفت من بينهم حاملاً متاعي عائداً من حيث جئت ، وما إن ابتعدت قليلاً عن مبنى الحكومة حتى أخذت أعدو ولا عدو السليك ، وكان شبح الجنديين الرهيب ما زال يلاحقني مما جعلني أنبذ الطريق الرئيسية وأسلك عبر الحقول .

لست أدري ما كان من أمر العامل مع حرسه ، وأغلب الظن أن اشتغاله بجماهير الناس المهنئين منهم والمودعين قد صرفه عن ادكاري ، على أني لم أعد أواجه بأية صعوبة تعوق سيري ، خلا أني ظللت إلى ما بعد يومين آخرين أسير مشدوهاً كالأعفر المروّع ، وتحولت خيالاتي الخصبة ومشاعري المتدفقة إلى تلفتات متواصلة وهواجس متضاربة .

ولم يمض هجيع من الليل حتى كانت ...

ووصلت ذماراً فى المساء ، وكان فى إمكانى أن أطرق باب أحد معارفىّ غير أنى فضلت أن أعمد إلى مقهاية المسافرين تجنباً لما قد يحدث من عقبات تثبط تقدمى .

وولجت مقهاية لا تبعد كثيراً عن جامع ذمار التأريخى والذى يزعم أهلها بأنّ دحية الكلبى الصحابى قد بناه عن أمر النبى صلى الله عليه وآله وسلم .

وكانت ليالى فى ذمار على نقيضها فى الموسطه من كل الوجوه ، فقد بتُّ على مقربة من معقاب «كرار حيوانات المسافرين» ، يؤذى أنفى رائحته الكريهة ويسك سمعى ضوضاء المسافرين المختلط بنهيق الحمير ورغاء الجمال وبواح البقر .

ولم يمض هجيع من الليل حتى كانت كلاب ذمار قد دخلت فى صراع نباحىّ كان كلما أحس به ينهى إذا به يبدأ من جديد . ومضى الليل إلا أقله وأنا أتململ فى قطيفتى [1] بين حشد من البراغيث الذمارية النهمة . وانتهى نباح الكلاب بسلام ، وبينما بدأت عينى تغفو قليلا إذا بأذنى تداعبها أصوات بعيدة ولكنها أخذت تتجاوب من هنا وهناك ؛ إنها الديكة قد هبت لتؤدى دورها فى مبارات صاخبة إشترك فيها ديك المقهاية الذى صار يقيم الدنيا ويقعدها بابتهالاته الخاشعة التى

(١) القطيفة : سبق بيانها فى صحيفة «١٠»

ولم أدر كيف أبارح المكان

هزّت نياط الإيمان فى قلبى . ولم أر بداً من إجابة نداء الفلاح ، فنهضت متسللاً إلى الخارج ثم انعطفت إلى اليمين والجاً مدرسة الإمام شرف الدين[1] حيث انضويت إلى زمرة المنتظرين لصلاة الصبح .

وبعدها رأيت كبكبة من المصلين تتجه إلى قبة ملاصقة للمدرسة يرقد فيها « العياد »[2] فذهبت معهم لأقرأ الفاتحة إلى روحه ثم عدت أدراجى . وقبعت فى زاوية المدرسة متناولاً كسرة خبز كانت كل ما بقى فى جعبتى على جرعة ماء من مشربة هناك ، وبينما أنا كذلك إذا بصوت خافت أخذ ينبعث من ركن المسجد بدأ بالاستعاذة ثم البسملة ثم قال بصوت رفيع لكنه حادّ : قال مولانا عليه السلام : فصلٌ . . . وراعنى ضغطه الشديد على تنوين اللام فى نبرة حادة مروعة ، وخيل إلىّ أنها زجر إصطلاحى يهيب بأهل الحلقة أن ينصتوا ، أو أنها بمثابة التحذير لمن عداهم لئلا يقتربوا ، وأياً كان مؤداها فقد كانت كفيلة بأن تلجىء الجميع لأن يفرنقعوا .

ولم أدر كيف أبارح المكان ، وعرفت وأنا أغادره

---

(١) راجع ترجمته فى «كتاب تاريخ الفكر الإسلامى فى اليمن» للمؤلف .

(٢) هو الإمام يحيى بن حمزه مؤلف « الشافى » . راجع الكتاب المذكور .

أن الشيخ يقرئ الناس في الفقه ، وكنت قد علمت قبل ذلك بأن ذماراً مهبط علماء الزيدية ومبرزيها ، وكم كان بودي أن أقضي يوماً آخر في هذه المدينة الأسطورية لولا خوفي من مطاردة أولئك المدججين ، وقلت في نفسي : لا شك أن أبي قد أبلغ بهربي ، ولا بد أن يعتريه القلق إذا أنا لم أحضر في الوقت المحدد الذي تعود المسافرون أن يصلوا فيه « تعز » وهو اليوم الثامن من تأريخ مغادرتهم لصنعاء فقررت مواصلة سيري :

وسافرت ماراً بيريم والمخادر ووادي السحول الخصيب وإبّ الخضراء ثم السّياني والقاعدة والعاقي ، ووصلت تعز في اليوم الثامن ، ولم أعثر على مكان سُكنى أبي بسهولة إذ كان يرابط مع كتيبته على سفح قلعة القاهرة ، وسلكت إليها واد فسيح مليء بالهضاب والمنحدرات المكتظة بالأحراش والأفاعي ، وكان الليل قد بدأ ينشر ظلامه حينما كنت أتخبط في تلك الغابة المقفرة ، وانتهى بي السير في حافة دغل موحش لا أرى فيه غير جذوع الأشجار الباسقة والأعشاب الملتفّة ، ولا أسمع غير أصوات منكرة وصفير لم يطرق سمعي من قبل . والتفتُّ يميناً وشمالاً فاذا بي أرى رجلا عجوزاً يسوق بين يديه قطيعاً صغيراً من الماعز ، ووقفت في مكاني أنتظره وقد بعثت رؤياه في نفسي بصيصاً من الأمل جعلني

وخامرني نوع من اللاشعور جعلني أستدير الى الوراء

استردّ أنفاسى شيئاً فشيئاً إذ كنت فى مأزق لا آمن فيه أن أكون لقمة سائغة للذئاب الكاسرة .

ولشد ما كان سرورى إذ عرفت من هذا العجوز أن أبى يقيم فى داره ، وصعد بى فى طريق ضيق من بطن الوادى ينتهى بفناء فى خصر المدرّج المؤدى إلى دار النصر يضم منزلا صغيراً ومسجداً مندثرا ، وإننى لأنسى كل شىء قبل أن أنسى تلك اللحظة التى أبلغ فيها أبى بحضورى فقد اندفع نحوى مسرعاً واندفع معه رفاقه فى السلاح ، وبدلا من أن أهش للقاء أبى إذا بى أجفل من هذا الاندفاع إذ بدالى أشبه بعملية هجوم أكثر منه حفاوة وترحاب . وخامرنى نوع من اللاشعور جعلنى استدير إلى الوراء وانطلق مهرولا فى سرعة خاطفة ، ولم يوقفنى إلا صوت أبى المتهدج فوقفت كالمسمّر فى مكانى ، واقترب منى فى رفق ثم ضمنى إليه وقد تملكه حنان الأبوة الغامر .

وفى وسع المرء أن يقدّر ما خالجنى فى هذه اللحظة من نشوة ممزوجة بسحر نجاحى فى مغامراتى الصبيانية الرهيبة ، والتى كانت بمثابة التجربة الأولى لأسفارى المتعددة فى ربوع أرض البطولات .

— ٥ —

كان المنزل يتألف من طابقين يطلان على وادى الجنبية من الشرق والذى ينتهى بسور مدينة تعز من ناحية الشمال ، وهو واد فسيح يكتنفه عدد من المسل الصغيرة المغطاة بالمروج والأشجار ، ويربض فى وسطه قبر أبيض لا يرتفع عن سطح الأرض إلا بمقدار متر واحد يحيط به سور قصير .

وقد لفت نظرى من أول يوم إلى هذا القبر تلك الأصوات الحزينة التى يطلقها زائروه ، واتضح لى بعد ذلك أنه ضريح كاهن يهودى قديم يسمونه (الشبزى) أو مورى سالم ، ويعود تاريخه إلى القرن الرابع للميلاد ، وأن هؤلاء الذين لا ينفكون من التطواف حوله إنما هم يهود يحجون إليه من كل بقاع الأرض معتقدين بأن ذلك يكفر الخطيئات ويجلب غفران الرب .

ويطل المنزل من الناحية الشمالية على قرية «المغربة» وكان يسكنها حوالى ثلثمائة نسمة من جماعات اليهود من مجموع خمسين ألف نسمة كانت مبعثرة فى مدن اليمن وقراها تمارس التجارة

وتزاول بعض الحرف الهامة كصنع الخزف ودبغ الجلود وتبييض البيوت وصياغة المعادن .

ويتصل من ناحية الجنوب إتصالاً مباشراً بجبل صبر الذى يعتبر من أعظم وأطول جبال اليمن وأكثرها قرىً وأوسعها خيرات وأغزرها ينابيع ، قيل إنّ به ما يقرب من ثلثمائة قرية ، وفى إمكان المرء مشاهدة العديد منها إذا وقف على تلك الأكمة الصغيرة الواقعة شمالى مدينة تعز ليراها وكأنها حبّات من الدرّ نثرت على مخمل أخضر ، وينتهى الجبل من ناحية الشمال عند فتحة واسعة تفصل بينه وبين تل هرمى شاهق تربض على قمته قلعة « القاهرة » والتى يعود بناؤها إلى ما قبل الإسلام ، وإن طريقها المرصوفة ذات الأسوار الحلزونية المشيّدة فى جنوبها لتشبه آثار السبئيين شكلاً وأسلوباً .

وقد قامت هذه القلعة بدور عسكرىّ هام فى عصر الدولة الصليحية « ١٠٤٥ — ١١٣٨م » ثم فى عهد الدولة الرسولية « ١٢٢٩ — ١٤٥٤م » . وصيّر منها المظفر الرسولى « ١٢٤٩ — ١٢٩٥ م » معتقلاً أو ما كان يسمى « دار أدب » وفيها اعتقل عميه بدر الدين وفخر الدين ، وكانا قد أخرجا منها قبل ذلك منفيين إلى مصر ولهذا قال بدر الدين عند ما زُجّ فيها ثانيةً : « قبحك الله من قلعة ، خرجنا منك مكبّلين وعدنا إليك مكبّلين » .

وفيها أيضاً اعتقل المظفر ابن عمه أسد الدين الرسولى، صاحب وقعة « شعوب » فى حربه مع الأمير شمس الدين، أحمد بن عبد الله بن حمزة .

وتنفرج من غربى الفتحة طريق تؤدى إلى مدينة تعز وتنتهى بسورها الضخم الذى يرجع بناؤه إلى القرن السادس عشر ، عند ما وصل إليها المطهر بن شرف الدين « ١٥٥٨ — ١٥٧٣ م » أثناء حملاته الشهيرة ضد الغزو التركى .

وفى داخل السور وعلى مقربة منه تقع مدرسة الأشرفية ثم جامع المظفّر الرسولى أو ما كان يعرف بجامع «عدينه» وهو إسم الوادى الذى يخترق مدينة تعز من الجنوب إلى الشمال ، وكان يقوم بجانب الجامع ما كان يسمى «دار الإمارة» أى فى المكان الذى تقوم فيه حالياً محكمة القضاء .

وبلغ ازدهار مدينة تعز العمرانى والثقافى فى عهد المؤيد الرسولى «١٢٩٧ — ١٣٢١ م » أوج ذروته . ويبدو لى أن هذه البساتين الممتدة غربى المدينة فيما يسمى « الأجينات » وشمالها فيما يسمى « عصيفره » وشرقيها فيما يسمى « المحلية » و« ثعبات » كانت نتيجة زحف حضارة بستانية رسولية .

وفى منتزه ثعبات توجد آثار مجارٍ ذات أشكال هندسية

تنتهى إلى بحيرة صناعية صغيرة كان المؤيد الرسولى يقضى على جنباتها ساعات تسليته .

ومنذ سنة ١٩٣٠ أخذت تعز فى التوسع والامتداد فى نطاقين أيكولوجيين نمو وتوسع من الخارج وتحسين وازدهار من الداخل ، وذلك عندما اتخذت كمركز إدارىٍّ للواء ، وكان سكانها قبل ذلك لا يزيدون على عشرة آلاف نسمة ، أما الآن فلا ينقصون عن مائة ألف .

وأسهم أهلها إسهاماً كبيراً فى تطويرها ديناميكياً بتفاعل العمران والتجارة أضفى عليها إسم « عاصمة اليمن الثانية » ، وقد تُركت تعز القديمة على ما هى عليه من الوضع العشوائى ، وقامت فى خارجها مدينة عصرية حديثة ذات شوارع معبّدة ودروب منظّمة وعمارات شاهقة ، وعند ما زرتها أخيراً وللمرة الخامسة عشرة تقريباً وجدتها قد أوتيت بفضل أنابيب المياه المتدفقة والأشجار الباسقة شبهاً مورفولوجياً بمدينة بازل السويسرية إن لم تكن أجمل منها هواءً وأصفى سماءً .

* * *

لقد أقمت فى ذلك المنزل الصغير الهادئ ، ويتكون — كما قلت — من طابقين ، يتألف الطابق العلوى من حجرتين إحداهما كان يقيم بها أبى ، أما الثانية فكان يقيم بها ضباط

كتيبته ، بينما يتألف الطابق الأرضي من حجرتين أيضاً خصصتا لجاويشات الكتيبة ، وكان أفرادها قد وزعوا في منازل قريبة بعض الشيء .

أما بقية الجيش الدفاعي فقد وزع ضباطاً وأفراداً في منازل الأهالي من قرى صبر طبق نظام كان يتبع حينذاك يسمى « الخطاط » .

ولم يكن على الأهالي إخلاء مساكنهم لهذا الجيش الكثيف الذي فرض عليهم ضيافته قسراً فحسب ، وإنما فرض عليهم أيضاً القيام باعداد الخبز اليومي مقابل نفر[1] ونصف من الذرة للجندي الواحد تصرفه الحكومة للأهالي وعليهم نقله وطحنه وإعداده .

وقد تعرض الجيش طيلة ثلاث سنوات — ظل خلالها مرابطاً بجبل صبر — لحصد وبائي مروع كنتيجة لتأثر الجنود بجو لم يألفوه وأمراض لم تتخذ الاستعدادات الكفيلة بمقاومتها كالدوسنطاريا والتيفوه اللذين فتكا بهم فتكاً ذريعاً .

وكانت المقبره التي يساق إليها الأموات من الجنود تقع في منتهى سفح الجبل مما يلي مدينة تعز فكان صدى التهليل

(١) النفر: جزء من ٦٤ جزءاً من القدح أو ما يساوي ٨٩٥ زمن الكيلو .

لا يفتأ فى أكثر الأحيان يتلاطم فى ذلك الوادى الضيق ثم يرتفع ليملأ أسماع الأحياء بحزن عميق .

وبعد أن ضاقت الأرض بالقبور لم يجد المسئولون سبيلاً غير أن يقبروا بعضاً على بعض ودفيناً على دفين ، وفى النهاية صاروا يقبرون الموتى بصورة جماعية فى حفر كبيرة كانوا يطلقون عليها « معافد » .

وكانت فكرة المعافد موجودة فى تعز إلى نفس التاريخ فكان لكل أسرة — كما سمعت — من أهل تعز معفدة خاصة تقبر فيها موتاها . ولم تعرف هذه العادة فى أى منطقة من اليمن ما عدا تعز ، وهى تشبه — وإلى حد كبير — تلك المعافد الرابضة على سفح «المقطم» مما يجلب الاعتقاد بأن عقلية «المعافد» قد نقلت إلى اليمن إبَّان الغزو الأيوبى أو الحكم الرسولى .

وقد راقتنى طريقة الحياة التقليدية السهلة والمبسطة فى تعز والتى تُعتبر بحق جد مسايرة لنزعة التجديد ، وأهلها يميلون إلى الوداعة وطيب الخاطر . وعند ما يتعرض أحدهم لأية ظلامة فانه لا يتصرف بشىء سوى أن يرفع يديه إلى السماء .

وهم لا يتعبون أنفسهم كثيراً فى الكسب . وتقوم النساء

بدور هام فى مساعدة الرجال وقطف القات[1] وجلبه إلى الأسواق ، أما حياتهم داخل البيوت ففى غاية من البساطة ، وقلما تجد بيتاً محصَّناً أو مزوَّداً بالمتاريس والاستحكامات لأنهم تعودوا ألا يشقُّوا عصى الطاعة ، وكذلك كان حالهم مع النجاحيين والصليحيين والرسوليين والأتراك والأئمة .

وكانت حياتى موزعة فى التجوال بين القاهرة والمدينة وأطلال المدارس الرسولية المندثرة ، وكان أعظم شيء تهفو إليه نفسى هو مرافقة صديقى العجوز فى رعى غنيماته العجفاء عبر تلك الأدغال المفعمة بفنون الأفاعى وضروب الحشرات وأنواع الحرباء ، وطالما اصطحبت قوساً أو مقلاعاً لاصطياد الجرعاء والبلابل الخضراء ، وأحياناً كانت غنيماتنا تندبنا إلى قرية اليهود ذات البيوت المتواضعة والتى تشكل دائرة صغيرة تحف بها شجيرات التوُّت والرمان ويخترقها جدول صغير . .

وقد أنس بى أهلها لكثرة ترددى ، واعذرونى إذا قلت أنه راقنى من خصالهم عملهم الدؤب المثمر ، فلا ترى فيهم الاحائك صوف أو دابغ جلد أو صانع خزف ، وأكثر ما بهرنى تحريهم للصدق واحترامهم للأمانه ، أفلا كانت

(١) سيأتى الكلام عنه .

هذه خصال نبيلة ولائقة بنا نحن المسلمين ؟ والعجيب في الأمر أن هذه الخصال كان يتسم بها كل يهودي تقريباً فى اليمن ، ولست أدرى ما إذا كانت تلك الخصال وليدة الذلة والمسكنة !! . . . أقول ربما كانت خصال تظاهرية ألجأتهم إليها ضرورة العيش فى مهجرهم . . . ليكن ذلك المهم أنها خصال جديرة بالمسلم إذ هى شرط على الأقل فى حنفيته .

ولم يبخل عليّ أبى من تدريبي على مسك البندقية واصطياد القرود لاسيما تلك التى كانت تهاجم مزارع القرية بين آونة وأخرى فى جحفل لجب .

وكثيراً ما كانت تزورنا ليلاً تلك الضباع الغثراء لتلتهم بأنيابها الحادة شاة ميتة أو جيفة حمار . وكان نباح الكلاب مرشدنا الوحيد لقدوم هذا الضيف الثقيل فما إن نحس بها حتى نهبّ من مخادعنا لنصوب إليها نيران بنادقنا فنصيبها إن كان الليل مقمراً .

وكان يقطن بالقرية المجاورة لنا معلم للصبيان وقد أخذت أختلف إليه ، ولكنّ ذلك لم يدم أكثر من أسبوع فقد وجدته غير قادر على تعليمى الإنكليزية التى كنت أتحرّق شوقاً لتعلمها .

واضطر أبى لشراء دابةٍ من أجل

واتفق أن زميلين لأبى كانا يجيدانها[1] ولكنهما كانا يقيمان فى ثكنات الجيش بالعرضى[2] الذى يبعد عن قريتنا حوالى ساعة ، فكنت اختلف إليهما بعد ظهر كل يوم راكباً على بغلة أبى ، وقد رحبا بمشروع تعليمى اللغة الإنكليزية بل سرهما ذلك كى يستعيدا مذاكرتها بعد أن كانا قد شرعا ينسيانها ، وكان هذان قد سافرا إلى العراق ضمن بعثة عسكرية أرسلت من اليمن سنة ١٩٣٢ .

وقد أخذت عنهما الحروف الهجائية وبعض المفردات والقواعد المتعلقة بالإسبال والنطق الأمر الذي ساعدنى على التقدم فيها دون كبير عناء ، وبعد أن توقفت دراستى لديهما تمكنت من حفظ الكثير من المفردات لنفسى ثم تابعت دراستها فيما بعد كما سيأتى .

وانتهى العام بموعد إجازة أبى وأخذ نا نستعد للسفر إلى صنعاء ، وكان لا بد لنا من استئجار دابة إلى جانب بغلة أبى ، ولما لم نجد ذلك بالأجرة إضطر أبى إلى شراء دابةٍ من أجلى .

---

(١) هما حمود الجائفى وهو الآن برتبة لواء وقد ترأس الوزارة فى عهد الثورة ، والمقدم أحمد يحى الثلايا . وسيأتى المزيد عنه لعلاقته الوطيدة بحياة المؤلف .

(٢) منطقة باسفل الحجملية حيث تقع ثكنات الجيش ودوائر الحكومة .

- ٦ -

وسافرت إلى صنعاء وأنا فى غاية من اللهفة لاستئناف دراستى ، ولما وصلتها وجدت زملائى قد نقلوا إلى ثانى ثانوى ، ولم يبق سوى أسبوعين لفتح الدراسة ، واتصلت فوراً بوزارة المعارف طالباً إلحاقى بزملائى ، فجاء الردُّ إيجابياً فى نفس اليوم ، وحدّد اليوم العاشر موعداً لامتحانى ، وتمكنت خلالها – وبمساعدة أستاذ لى سابق – من استعادة دروسى كلها .

وشاء رئيس اللجنة – وكان سورياً – أن يمتحننى هو ، ذلك لأن أحد الأساتذة كان قد أطنب فى امتداحى ، ولم يعجبه هذا الإطراء إذ ظن أن ذلك الأستاذ يقوم بدورٍ نفعىّ ، فقرر أن يتولى امتحانى بنفسه .

وبدأ امتحانى بدرس الحساب ، وبعد أن وقفت أمام السبورة قال لى : « اكتب واحد ورُبع » فكتبت الواحد ولم أكتب الباقى ، فظن أنى لا أعرف شيئاً ، ثم قال : « إذاً أكتب خمسة وثلث » فكتبت الخمسة ولم أكتب الباقى ، فثار

الأستاذ وهمَّ برمى أوراقى إلى الأرض بينما ظل بقية الهيئة ساكتين كأن على رؤسهم الطير ، وبعد أن تنحنحت مرة وثانية أعلنت له فى استحياء أننى لم أفقه ما يقول ، وهنا ثارت ثائرته وقال صارخاً فى وجهى : « أنا أكلمك بالعبرى أو بالعربى... ؟ هه ... ؟ » فلم أحر جواباً . ولم يتمالك شيخ القرآن —وكان ضريراً— أن يتقدم إلى الأستاذ باقتراح وجيه وهو أن يتولى امتحانى معلم الحساب نفسه ، ووجه إلىَّ هذا أصعب المسائل فجعلت أحلها بكل خفة الواحدة تلو الأخرى ، ثم وجهت إلى مسئلة فى الجبر وعلوم الدين وتجويد القرآن ، ولكن قبل أن أمضى فى جوابى على سؤال التجويد قاطعنى ذلك الأستاذ قائلاً : «كفاية ... ، كفاية مبروك سامحنى يا ولدى . ... » .

وكانت هذه المدرسة الثانوية هى الأولى فى تاريخ اليمن ، ولهذا حُظيت باهتمام وزارة المعارف الخاص ، وجُلب لها مدرسون من بعض الأقطار العربية بالإضافة إلى المدرسين المتخرجين من العراق(١) ، وقد قام هؤلاء بوضع اللَّبِنة الأولى

---

(١) كانت أول بعثة يمنية تبعث إلى الخارج ما عدا بعثة طبية وأخرى للطيران إلى إيطاليا ، وباستثناء بعثة عسكرية إلى العراق أيضاً . ومن أعضاء هذه البعثة : محى الدين العنسى ، أحمد الحورش ، زيد بن على عنان ، أحمد صالح البراق ، على بن على الآنس .

فى مجال التعليم المعاصر ، وكان النظام الجديد الصارم يطبّق على أشدّه تحت إشراف مدير عالم ونشيط[1] وقد تمكن هذا بإخلاصه ومقدرته من تنظيم المعارف والسير بها إلى الأمام .

وإلى جانب العلوم العصرية خصّصت دروس أخرى فى التفسير والنحو وعلوم الدين كان يقوم بتدريسها علماء مبرزون . وكان نظام الدراسة يقضى بضرورة تواجد الطالب بالمدرسة من الصباح الباكر حتى تؤدّى العشاء فى مسجدها باستثناء ساعتى الغداء لمن كان له سكن بصنعاء .

وبعد مضى ثلاثة أعوام أى سنة ١٩٤٤ كنت قد أديت امتحان الثانوية العامة. وفى تلك الأثناء كانت وزارة المعارف قد فتحت معهدين أحدهما للكتاب والثانى للمعلمين وأصدرت قانوناً يقضى بالتحاق الناجحين الأوائل وهم النصف الأول بمعهد الكُتّاب والنصف الباقى بدار المعلمين ، فكنت ممن التحق بمعهد الكُتّاب .

وكانت الدراسة فى هذا المعهد تحوى ثلاثة فنون رئيسية هى : فن المحاسبة المالية ، فن المحاسبة العسكرية ، فن الحساب . وانتخب لتدريسها أشهر المحققين فيها .

---

(١) هو فضيلة السيد على بن اسماعيل المؤيد .

وتخرجت عام ١٩٤٦ من معهد الكتاب بشهادة وزارة المعارف ، وعينت يومها بشعبة التدقيق العسكرية بوظيفة كاتب ، غير أنى لم أمكث بها أكثر من شهر واحد حتى أصدرت وزارة المعارف قراراً بالحاقى بمحاسبتها .

وفى خلال ذلك الشهر كنت قد ألممت بكثير من الأعمال العسكرية التطبيقية كما ألممت بمعظم شئونها . وكانت القيودات والأعمال الدفترية والمعاشات والتنقلات تسير طبق نظام تركى عتيق ، حتى أسماؤها ظلت كما هى فهناك الجورنال والمضبطة والبوردور والجندرمة والكزشته والعرضحال ، أما رتب الضباط فالملازم واليوزباشى والبكباشى والقائمقام ، وأما رتب الجيش فالمنقة والبلوك والطابور والآلاى ، وأما التوقيت فعلى حسب الشهور المالية التى تبتدئ بمارت «مارس» وتنتهى بشباط «فبراير» .

وكانت هيئة التدقيق تعتبر أعلا هيئة حسابية وإدارية فى الجيش ، وتتبع إمارة الجيش مباشرةً ، وكانت الإمارة أعلا سلطة عسكرية إذ لم يكن هناك وزارة للدفاع ، وليس هناك أنظمة محددة عدا تلك الجزازة التى تتعلق بسلوك الأفراد وآداب المادون والمافوق ، ومن ثم كانت أوامر الإمارة تعتبر «تعليمات» لكنها كانت وقتية سرعان ما يطرأ عليها بين وقت وآخر عوامل التغيير والتبديل .

وكانت الرشوة متفشية بصورة بشعة شأنها شأن بقية أجهزة الدولة ، وربما كان ضعف المرتبات الدافع الأول لتعاطيها[1] ، وكانت تنقلات الجيش وتحركاته فى المراكز الداخلية بمثابة تجارة مربحة يتقاضى المسئولون عنها سيولاً من الأموال ، فالمأمورية الدسمة لمن يدفع الأكثر نقداً عاجلاً غير آجل ثم الويل كل الويل لذلك المواطن المسكين فالمفرزة ستخرج بضراوة لا ترحم وقسوة لا تلين .

ووسائل البطش والتنكيل فى المراكز كانت ذات أشكال وفنون ، فهنالك العشور النقدية والعينية وهنالك زكاة الصراب وزكاة القياض وموسم الخريف وموسم الربيع ، وهنالك واجبات المخضرات وسوق العلف ، وهنالك البواقى والإقراضات ونقص الزكاة والتزويج الإجبارى ، ثم هنالك الرسامة واللكاكة والفكاكة وغير ذلك من الأسماء المنكرة التى ما أنزل الله بها من سلطان[2] .

* * *

عدت إلى وزارة المعارف لأعمل فى محاسبتها وكان هذا

---

(١) كان مرتب الجندى ستة ريالات وكاتب السرية من عشرة إلى خمسة عشرة ريالا .

(٢) الرسامة واللكاكة والفكاكة : رسوم تفرض على المساجين .

القسم -مع قسم آخر بجانبه يسمى المديرية- يشكّلان الجهاز المالى والإدارى للوزارة باشراف المدير العام بالإضافة إلى مكتب الوزير الذى يضم كاتبين فقط للتحرير . وكانت المحاسبة لا يتعدى موظفوها الخمسة أشخاص ، ويتبعها إدارات الألوية التى تضم المدير والكاتب فى اللواء وكانت مدارس اليمن بأكمله لاتزيد على تسعين مدرسة ابتدائية ولكنها بدائيه ، وثمان مدارس علمية « دار علوم »[1] .

وكان أساتذة المدارس الابتدائية ينتخبون من بين الأهالى الذين لهم إلمام أو بعض إلمام بالتدريس . وفى سنة ١٩٤٠ م شكل أول معهد للمعلمين « دار المعلمين » .

وكان رئيس المحاسبة ويدعى حسين أفندى العجمى قد عهد إلىّ بمسك دفاتر لواء صعده ، وأخذ يدربنى على ما يجب علىّ عمله ، وكان هذا أحد موظفى الأتراك الذين رغبوا فى البقاء باليمن بعد جلاء القوات التركية سنة ١٩١٩ وقد قام بدور فعال فى مجال التنظيم العسكرى والمالى لدولة الإمام يحى إبّان تأسيسها ، وإلى جانبه عدد بسيط من الأتراك الذين قام على كواهلهم تسيير الأمور المالية والإدارية وفق النظام

---

(١) هى : صنعاء ، إب ، تعز ، صعدة ، المحابشة ، حبور ، حراز ، حوث .

التركى الذى ظلت البلاد تسير عليه حتى قيام ثورة ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٦٢ .

واستطاع هؤلاء بسلوكهم الخلقى والاجتماعى من كسب ثقة الدولة والشعب ، وكان بالرغم من تقدمه فى السن — الذى كان حينذاك يناهز السبعين — يفيض نشاطاً وحيوية ، وكان يحرص على أن يتولى بنفسه تدقيق الحسابات وفحصها ، وكان يجيد العربية إجادتة للتركية إلا أنه كان يحرص على أن لا يتكلم مع مساعده إلا بالأخيرة حتى لقد حفظت منها بعض المفردات التى كنت كثيراً ما أسمعه يرددها .

ومرت خمسة أشهر على إنتقالى إلى محاسبة المعارف ، وكنت حينذاك قد بلغت الثامنة عشرة من عمرى عندما قررت الوزارة نقلى إلى صعدة ككاتب لمعارف اللواء هناك ، وكان ذلك على إثر قدوم مدير معارف اللواء فى طريقه إلى تعز لتشكيل دار علوم فيها[1] .

---

(١) هو القاضى أحمد بن عبد الواسع الواسعى شيخ المؤلف والذى كان له أكبر الأثر فى حياته ، وقد أطلق عليه المؤلف بعد هذا اسم « الأستاذ الشيخ » .

- ٧ -

وتمت أوراق تعييني خلال بضعة أيام ، وكنت على استعداد للسفر يومئذ أو بعد ذلك بيومين إلا أنه كان لا بد لى من الانتظار ليوم الثلاثاء لأنه اليوم الوحيد الذى تتحرك فيه القوافل إلى صعدة ، وذهبت مع أبى إلى السوق حيث يوجد الجمّالون والحمّارون لنتأكد من موعد سفرى .

وفى صباح يوم الثلاثاء ودّعنى أبى وأقاربى إلى مكان القافلة ، وتحركت مع الفوج الأول وهو مركب الحمير يتقدمنا رئيس القافلة الحاج مقبل ، ثم تلاه الفوج الثانى وهو موكب الجمال المحملة بالبضائع التى يتطلبهاسوق صعدة والذى كان يقام كل يوم أحد من أقمشة وعطور وتوابل لتعود محملة بحقائب التمر :: والبن والزبيب .

ولم يكن الحاج مقبل وحده هو الذى يملك قافلةً بل كان هنالك غيره ممن يسمون بالحمّالة ، وكانت كل قافلة تسير على انفرادها حتى « خمر » ومن هنالك لا بد لها من السير

مجتمعة لأسباب أهمها تزجية الليالى التى ستقضيها فى الخبت ثم لأن الطريق فيما يسمى بالعمشية[1] كانت كثيرة المخاطر بسبب قطّاع الطرق ، فالمسافر بمفرده – وحتى الجماعة القليلة – لا بد أن يتعرض للنهب .

ومن بين ما كانت القوافل تحمله تلك النقود التى يبعثها تجار صعدة إلى صنعاء والعكس ، ذلك أن العملة اليمنية كانت لا تزال الريال الفضىّ المعروف بماريا تريزا ، فلم تصدر العملة الورقية فى اليمن إلا بعد قيام ثورة ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٦٢ .

وقد روى لى الحاج مقبل قصصاً غريبة جرت له فى هذه البيداء مع قطاع الطُّرق ، ومما قاله أنه حدث ذات مرة أن أغارت على قافلته جماعة ضخمة فنهبتها ، ومن ثمَّ فقد اتفق أصحاب القوافل على أن لا يمروا إلاّ مجتمعين مسلحين ، ولهذا فعلى من يحاول سلوك العمشية فما عليه لا أن ينتظر موعد القافلة ليسير فى كنفها آمناً وإلا تعرض للنهب أو القتل[2] .

---

(١) مفازة بين واسط والصفراء وتبعد الأخيرة عن صعدة جنوباً ١٥ ك م تقريباً .

(٢) كان هذا قبل عشرين عاماً أما اليوم فقد أصبحت الطرقات آمنة بعد أن عبدت وأصبح السفر والانتقال بواسطة السيارات .

ولما كان أولئك اللصوص لا ينتمون إلى قبيلة معينة بل مجرد عصابات من البدو فقد صعب على الحكومة ردعهم وأخذ الرهن منهم .

* * *

كان الحاج مقبل يروى أقاصيصه وهو ينطلق على حماره الأبيض السريع ، وكان كثيراً ما يقطع حديثه ليزجره إما ليخفف من نهاقه أو ليستمر فى عناته ، أو ليحدوه بغنائه الرقيق مردداً تلك المقاطع التى تعود الحمّارون أن يحدوا بها دوابهم :

يا لله يا من توكلنا عليه يسّر لنا الخير وسيّرنا إليه

* * *

رب ندعوك تحقق قصدنا فما لنا من رجاء إلا إليك

ولأهل اليمن اصطلاحات خاصة فى زجر حُمُرِهم ومعظمها أصوات لا هى بالذلَقية ولا بالنِّطْعية ، فمنها ما ينبعث من تحت اللسان فلا هى بالغين ولا بالقاف إذ أراد المضىّ فى السير ، أو من طرفه بعد عطفها وإلصاقها بالحنك فلا هى باللام ولا بالراء إذا أراد التوقف ، ومنها ما ينبعث نتيجة ضغط طرف اللسان على طرف الحنك أو على الأسنان نفسها فيتولد من ذلك صوتان مختلفان لا هما بالذال ولا بالتاء إذا أراد المجىء .

وهكذا ظل سيرنا مرحا

ودلفنا ننطلق فى سيرنا ، أحياناً نشكل صفاً أعوجاً إذا كانت الطريق فسيحة أو مثنى وفرادى إن كانت ضيقة . وكان معظم دواب القافلة من تلك الحمُرُ البيضاء القوية والتى تعرف بالحمُرُ الصعدية المشهورة بسيرها الهيدبى الرتيب ، أما حمارى فلم يكن من تلك فكان تارة يَخِبّ وأخرى يَهدِج ، وكنت لا أدرى هل أمسك بيدىّ على جانبى الوقاء كى أثبت نفسى على ظهره أم أمسك عمتى على رأسى ، على أنها كثيراً ما كانت تنفصل لتحلّق فى الهواء ثم تهبط على الأرض فأضطر إلى التوقف لأنثنى راجعاً لا لتقاطها ، ثم أعود ثانية متلمساً صخرة أو مرتفعاً من الأرض أعلو منه ظهر حمارى إذ كنت لم أتعود بعد على القفز من الأرض رأساً كما يفعل أولئك .

ولما كان سقوط عمتى مثاراً لضحكات أولئك الرفاق « المتأدبين » إذ كنت المعمم الوحيد بينهم فقد أخذوا يزجون السير على منظرها الفكِه وهى تنفصل من رأسى لتطير فى الهواء ثم تقع على الأرض كما تنفصل كبسولة أبو اللو لتهبط على سطح القمر فيكثر تندرهم وترتفع ضحكاتهم ، بل إنهم كانوا ليتعمدون إسقاطها بأن يتركونى فى مقدمة الركب ثم يزجروا حميرهم فينطلق حمارى مهدِجاً فتهوى العمامة لتتدحرج أو تدخل تحت حوافر الحمير ، وهكذا ظل سيرنا مرحاً إلا أنه كان ممضاً لى بعض الشىء ، ولهذا فقد فضلت

خلعها دون أسف حتى دخلت صعدة .

وكان يروق لى الاستماع إلى حديث أولئك الرفاق الذى كانوا يتبادلونه فيما بينهم عن أخبار السوق وأسعار البضائع ، وما يلزم جلبه من صنعاء إلى صعدة والعكس ، وما باعوا وما اشتروا وما ربحوا ، وما تعاقد به أحدهم مع مورّدى التمر من أهل نجران أو جلاّبى البُن من أهل خولان الشام أو تجار الزبيب من أهل سحار وآل عمار والصحن ، وعن أسعار الدّقدقة [1] التى يجلبها متسوقوا عاهم [2] .

وعرفت أن الجلود تباع بالكورجة [3] والدّقدقة بالفراسلة [4] ، والبُنّ بالفَرَق [5] ، والزبيب بالقدح [6] ، والتمر بالنصافى [7] . وكانت تجارة الذهب والسلاح والمفارش

---

(١) الدقدقة : دقيق الأحجار المليحة يخلط بالتمباك ويصنع منه البردقان « الشّمة » .

(٢) سوق عاهم : فى أطراف تهامة مما يلى « كشر » .

(٣) عشرون وحدة .

(٤) عشرون رطلا .

(٥) حمل الجمل .

(٦) القدح : ٦٤ نفراً ، النفر : ٩٨٥ر٠ من الكيلو .

(٧) النصافى : نصف قدح .

البيشيه — وكانت تجاب من السعودية — هى خير ما يكسبون فيها من الربح ، كما عرفت أيضاً أن معظم ما يجلب من السعودية كان لا يأتى عن طريق صعدة بل يهرَّب إلى صنعاء عبر الصحراء الشرقية إلى حرف سفيان[1] ، هرباً من دفع الرسوم الجمركية ، وعرفت أيضاً أن السلع التى تصدرها اليمن إلى السعودية كانت أعظم بكثير مما تستورده منها ، فكانت اليمن تصدر الحبوب والبن والجلود والفواكه والزبيب والسمن والعسل والمواشى من بقر وغنم وجمال ، والمصنوعات الجلدية والحريرية التى كانت تزخر بها أسواق اليمن حينذاك .

ولم يكن هناك من يفكر فى وضع نظام للإستيراد والتصدير ، ولهذا كانت منتجات اليمن تملأ أسواق السعودية وعدن والحبشة دون أن تستورد منها غير الذهب والريالات التى كانت تتجمع فى خزائن تجار صنعاء وتعز والحديدة ثم ترسل ثانية إلى عدن ليُستورد بدلا منها الأقمشة والصوف وأنواع الكماليات ، ذلك أن ميناء عدن كان الثغر الرئيسى لليمن بالضرورة ، إذ كان لا يوجد ميناء عالمى باليمن حينذاك كما أنه لا يوجد بنك أيضاً ، ومن ثمَّ ظلت خيرات اليمن

---

(١) قرية على مسافة ٨ ك م جنوبى صعدة .

أكثر من ثلاثين عاماً تذهب إلى خزائن الاستعمار البريطانى فى عدن .

* * *

وافينا قرية « وعلة » لليوم الأول من مغادرتنا لصنعاء ، وهى قرية الحاج مقبل الذى أنزلنى ضيفاً فى داره ، واجتمع لديه معظم أهل القرية لقضاء فترة السمر ، وكان بعضهم مزارعين معه أو مشاركين له ، فكان تارة يسأل هذا عن جربة « مسعود » ووعار « الضبر » وسبّة « اللكمة » ، وتارة يسأل ذاك عن خبط الذرة ودويم الدجره[1] . . . . إلخ .

وجاء وقت النوم وذهبت إلى مخدعى بالمنظر الصغيرة بينما نام الحاج مقبل فى الديوان وكان القدر قد أخبأ شيئاً لم نكن نتوقع حدوثه ؛ فقد نهضت بعد مضى هزيع من الليل على جلبة وصياح فى دهليز الدار فألقيت بنفسى إلى خارج المنظر وركضت مع المتراكضين وإذا بى أجد الحاج مقبل واقفاً وحوله أهل الدار .

وانكشف الحادث عن قصة غريبة ومؤلمة فى نفس الوقت ؛ ذلك أن عم الحاج مقبل وحليله فى الدار كان قد رأى ابن أخيه إبّان

(١) الجربة : الحقل الكبير ، الوعار : الحقل الصغيرة فى عرض الجبل ، السبة : الحقل الصغير فى السهل ، الدويم : دوس الزرع .

وصولنا ينقل خُرَجه المليء بالنقود إلى مخزن صغير قريب من الديوان ، فسولت له نفسه أن يسطو عليها ، ورأى أن الليل هو الوقت المناسب لذلك .

وكان الحاج مقبل قد عهد إلى أخيه بالمبيت فى المخزن ، واقترب هذا العم من الباب ففتحه وأهوى بيده إلى الخُرج دون أن يدرى بأن هنالك حارساً ، فاستيقظ هذا وبدلاً من أن يقبض عليه إذا به يبعث صرخة مرعبة دوّت لها جنبات الدار ، فنهض الحاج مقبل كالمخبول وانطلق إلى خارج الديوان بعد أن تناول بندقيته واتشح بطيّاره[1] معكوساً وما كاد يهبط من السلم حتى تناثرت رصاصات الطيّار على درجاته ، وما إن هوى بيمناه حتى انزلق انزلاقة جعلته يتدحرج ثم يهوى إلى صحن الدار ، وسرعان ما أغار الناس من الداخل والخارج ، منهم من يحمل مسرجةً ومنهم من يتأبط صميلاً[2] ومنهم من يتنكب عاطوفاً .

وأخذ بعضهم يجوسون الدار ، وما هى إلا لحظات حتى جيئ بصاحب الفعلة وكان قد اختبأ فى أخُرَةٍ للبقر ، رجل

---

(١) الطيار : حزام من الجلد تحيط به خروم صغيرة تدس فيها الرصاص .

(٢) الصميل : الهراوة .

عجوز ذو لحية بيضاء ووجه متجعِّد أغبر :

وانبرى القوم ليوثقوه فى الحبال ولكن الحاج مقبل نهاهم وأشار إليهم أن اتركوه وشأنه ، فأكبرت فيه سماحته وحلمه وتبينت أن حاتماً والأحنف فى الناس كثير وأن الناس مواطن منها ما يجود عنباً ومنها ما ينبت إلاّ حنظلاً .

كما عرفت لماذا كان الحاج مقبل موضع ثقة الكثيرين ، ذلك أن ثقة الناس وتقديرهم لا ينالها الشخص بصورة عفوية إذ لا بد من البرهان الفعلى .

وأسفر الحادث عن إصابة الحاج مقبل برضوض فى جنبه الأيسر ورجله اليمنى ، لكنها لم تكن لتعوقه عن مواصلة سفره فقد اكتفى بتضميدها إذ كان لا بد له من أن يكون متواجداً بصعدة فى صباح يوم الأحد الذى هو يوم سوق صعدة الأسبوعى .

وغادرنا « وعلة » فى الصباح ، وما هى إلا ساعة أو بعض ساعة حتى وجنا قاع البون ، وأخذ الحاج مقبل يردد بصوته الرقيق إبتهالاته الصباحية :

يا الله رضاك إنا توكلنا عليك	فإنّ من سار بغــيرك هالك
إغفر لعبدك ولكل الإخوان	ومن عذابك نجّنا يا رحمان

ها هو الحاج مقبل قد نسى كل شىء وأصبح لا يهمه إلا أن يشمله الله مع إخوانه بغفرانه ومن الجملة عمه الشقى البائس ، ولا يروقه إلا أن يرفع عقيرته ويغنى بصوت رخيم خاشع يستقبله البون بحنان وإشفاق .

وقال لى إنه يحفظ أبياتاً تضرعية كثيرة، ولكنه لا يستطيع تذكرها إلا عند ما يكون متوجهاً إلى بيت الله الحرام الذى يحج إليه فى كل عام ، وأنه قد حج إثنتى عشرة حجة وسيظل يحج حتى يلتى ربه .

وتحدثت معه طويلا فيما يخصه ، وأخيراً طابت منه أن يبوح لى بأمنياته فأجابنى فى براءة : « أتمنى أن أعيش مستوراً وأن أموت مستوراً وأن يلطف الله بالمسلمين جميعاً » فقلت له : هل تظن أن غيرك كذلك قال : « بلى » فقلت له : ما رأيك فى هذا التكالب على الدنيا وهذا العداء والتطاحن بين الناس من أجلها فقال : « أنت تعرف يا صديق الحال أن بلادنا عجفاء إن أمطرت عاماً فما أمطرت آخر ، فهذا قاع البون وهو من أكبر سهول اليمن ولا يزرع إلا البن . . . البن البونى الذى تعرفه وتسمع به ، مرت عليه هذه السنة الثالثة وهو مخلف « أى مجدب » بسبب الجفاف ، ولهذا ترى كل واحد يتقنص اكتساب العيش بكل الشباك ليدخره

لليوم الأسود فقلت له : « وما هو اليوم الأسود ؟ » فأجاب : « يوم المجاعة ويوم الخوف ، لو كان معنا حكومة صالحة تفتح المشاريع وتجلب الارتوازات لفاضت الأرض بخيراتها وأمن الناس وزال التكالب على الرزق ، واليمني كما تعرف صاحب إباء ونخوة لا يتمرد إلا عند الضرورة ولا يسرق إلا عند أمس الحاجة ، ولا ينهب إلا لأنه يعيش في الجبت وسط الرمال لا ماء ولا مرعى » .

هكذا كان الحاج مقبل يمتع الركب بأمنياته الساذجة وعظاته البريئة . . .

* * *

- ٨ -

وأخذنا نعبر البون ، ومررنا بريدة مروراً خاطفاً ، وانتهى بنا القاع بسفح نقيل الغولة، ومن قمته انحدرنا نحو قلعة مهابهل فمدينة «خمر» حيث أمسينا ، وكان للحاج مقبل أغراض فى كل قرية نمر بها ، فهو إما يسلم ودائعاً أو يستلم بضائعاً ، وتارةً يبيع وأخرى يشترى ، وكان دؤوباً نشيطاً ، وله فى كل مكان ينزل فيه عملاء من هؤلاء الذين يسمون « متهوين » لا ينزل إلا لديهم ، وليس عليه إلا أن يشعرهم بعدد أصحابه ، ويقوم المتهوى بشراء اللحم وإعداد العشاء ثم يكون الحساب بالتخارُج .

أما فى « خيوان » و « واسط » والعمشية وهى الأماكن التى بتنا فيها بعد ذلك قبل أن نبلغ « صعدة » ، فقد كنا نسبق القافلة بحمُرنا السريعة إليها ، وهناك ينبثُّ الرفقاء ، منهم من يجمع الحطب ومنهم من يشترى الكبش ومنهم من يذبحه ، وما تكاد تؤدّى العشاء حتى تكون القافلة قد أقبلت فيناخ الجمل بجانب أخيه فى شكل دائرة ، ثم تحط الرحال فى

وسطها ويتخذ كلٌّ من رحله مرتبة له حول المستوقد الذى كانت أجدال الحطب قد ألقيت فيه وأعلقت بالنار ثم تركت لتشتعل وترسل ألسنتها ما شاءت فى الهواء ثم تصير ركاماً من الجمر ، وعند ذلك يوضع اللحم فى جفنة من النحاس ويترك لرحمة النار .

وينبرى إثنان أو ثلاثة لأعداد العشاء على الطريقة البدوية المعروفة بالجَمْرى فيأخذ أحدهم قطعاً من عجين الذرة أو الحنطة — والاول هو المفضل — ثم يكورها ويدس فيها حجراً كروية منتقاة كانت قد ألقيت فى النار حتى أحمرّت ، يلتقطها هذا بيده ثم يلقيها مع العجينة فى النار ويدعها حتى تنضج .

كانت هذه العملية تسير فى هدوء بينما يتابع رجال القافلة بأنظارهم كلما يجرى على المستوقد ، وهم يتبادلون أخبار التجارة وأحوال البلاد ، فهذا يخبر عن بلده خارف وذاك عن وطنه العصيمات وذلك عن قبياته ألت أبو الحسين . . . .

وما هى إلا دقائق حتى يكون اللحم قد استوى والجمرى قد اشتوى ، وعند ذلك يمد نَطْع عريض توضع عليه جفنة واسعة يفت فيها الجمرى ثم يبل بالسمن والمرق .

ويجتمع القوم فلا ترى إلا أيدٍ تصعد وأيدٍ تهبط ، وفى

النهاية يوزع اللحم وينقلب كلٌّ إلى مكانه حيث يبدأ السمر وتتبادل الفكاهات وتحكى الحكايات وترتفع الضحكات مخترقة جو الظلام الصامت الذى لا يشوشه إلا أصوات المدقات تدق البن المحمَّر وحبَّات الزر والهيل والزنجبيل ، يقضون هذه الفترة الممتعة على رشف القهوة العربية يتخللها إلقاء الشعر القبلى من أحد هؤلاء الذين يأتيهم ما يسمونه بالهاجس ، وكثيراً ما يكون شعراً فكاهياً أو غنائياً ، وأياًّ كان فلا بد أن يختم السمر بالمهيد[1] يشتركون فى أدائه بأصوات عالية ينشق لها الفضاء شقاً .

* * *

وفى اليوم الذى غادرنا فيه قرية « واسط » متوغلين فى مفازة العمشية كان الحاج مقبل ورفقاؤه قد توجسوا تهيبى سلوكها — وحق لمن كان فى مثل سنى أن يتهيب سلوك هذه البيداء الموحشة — وذلك من كثرة أسئلتى عن العمشية : طولها وعرضها وأحوال الأمن فيها ، فأتمروا فيما بينهم على أن يقضوا مرحلتهم بالتفكُّه بى .

وقبل أن نتوغل فى الطريق رأيت أحدهم يشحن رصاصات فى

---

(١) نوع من الغناء الشعبى يؤدى بصورة جماعية ومثله الزامل والمغرد ، ولعله من هاد أى حرك كما فى القاموس .

بندقيته ثم سمعته يردد – متصنعاً – كلمات تُوهم وجود أخطار أمامنا ، وكان فى جيبى مسدس صغير كان قد زودنى به أبى ، فسللته من غلافه ، وجعلت ألقى رصاصات فى جوفه ، وبالرغم من تكتمى فقد أحسوا منى ذلك وجعلوا يتهامسون فيما بينهم وهم يقهقهون .

وأخذنا نواصل السير حتى الظهيرة . واقترح أحدهم أن نعرِّج على ماء على يمين الطريق حيث تعودوا أن يقابلوا نجَّابة البريد – أى حامليه – القادمين من صعدة إلى الحرف ، وهناك طلبوا منى شيئاً من الرغيف والشاى كان ضمن متاعى ، فاضطررت – من أجل إجابة طلبهم – إلى إلقاء حقائبى إلى الأرض ، وبينما أخذنا نشعل النار ، إذا بجماعة مسلحة قد أقبلت من ناحية الغرب :

وهنا نهض الرفقاء جميعاً وامتطوا ظهور دوابهم ، وصاحوا فىَّ أن انهض وإلا فأنت عشاء القوم ، وأخذت فى هلع أجمع متاعى المبعثر وأحشره فى الخُرج[1] حشراً :

وكان الخُرج ثقيلا بحيث لا أستطيع رفعه إلى فوق ظهر

---

(١) الخرج : وعاء معروف يوضع على ظهر الدابة الجمع : خرجه « قاموس » .

حمارى بمفردى ، ورأيت أن الفرار بدون متاع ولا حمار نهاية فى الجبن .

ولم أفطن إلى أنها خدعة ماكرة من رفقائى ، كما أنى لم أشك إلا أن هؤلاء هم قطاع الطريق أنفسهم فى حين أنهم كانوا نجَّابة البريد ، وها هم قد صاروا على مقربة منى فقررت منازلتهم القتال ، ولكنى ما إن حاولت شهر مسدسى حتى صاح بى أحد الرفقاء الذين اختبأوا خلف الأشجار وصاروا فى مكر يضحكون وفى تخابث يتندرون ، ثم تراجعوا فى الحال وهم يقهقهون .

وليسكنوا من سورتى صاروا يمطروننى بالإطراء المزيَّف حيث زعموا بسالتى بالرغم من ارتجافى الفاضح ، على أن هذا الإطراء قد استخفنى وساعد على تحويل خورى إلى بطولة ونعامتى إلى ليث ، ثم أغمدت مسدسى فى نشوة الظافر المنهزم ، على أنه ما كان ليجدى نفعاً ، فقد جربته بعد أن استأنفنا السير محاولاً إطلاقه على غزال خطر بالقرب منا فلم تنفجر له رصاصة ، واتضح بعد ذلك أن زنبركه كان محطماً ، فكنت كالحادى بلا بعير والحداد بلا كير .

وانتهت بنا العمشية فى مناخ الصفراء ، وكان الحاج مقبل قد اصطاد ببندقيته غزالاً كبيراً ، وكان عشاؤنا هذه

الليلة من نوع جديد يسمونه « الحرشب » فبعد أن حفر الرفقاء حفرة عميقة واشعلوا فيها النار وضعوا فيها الغزال بعد سلخه ثم حثوا عليه الرمل ، وما هى إلا ساعة حتى كان اللحم جاهزاً ، وعندها سل الرفقاء سكاكينهم الحادة وانهمكوا على الغزال يقطعونه إرباً ويلتهمونه إلتهاماً .

واتجهنا فى الصباح نحو « صعدة » مارين بوادى دمّاج ثم وادى العبدين الواقع بين قلعة السنارة من اليمين وقلعة الصّمع من اليسار ، وينتهى بمضيق لايزيد على ٣٠ متراً طولا و ٩٠ متراً ارتفاعاً ، وهنا كان يقوم سد الخانق التاريخى والذى يعود بناوءه إلى القرن الرابع للميلاد .

وتنفرج أمام المضيق فى اتجاه مدينة صعدة أرض خصبة فسيحة مزدانه بحدائق الخوخ وخضائر الكروم .

وكانت مياة السد تسقى حدائق رحبان والصحن والعُقبات ثم تمر من شرقى صعدة فتسقى عكوان والبُقلات ، أما الآن فهذه تسقى بواسطة المسانى « النّواضح » ويتراوح عمقها من خمسة أمتار فى وادى العبدين إلى خمسة عشر متراً فى الصحن والبقلات .

وشاهدنا مدينة صعدة من بُعد بدورها الجميلة ومنارتها الطويلة وسورها الضخم والذى يعودّ بناوءه إلى القرن السادس

عشر للميلاد عند ما زار الإمام شرف الدين ضريح جده الهادى في قصة شهيرة تخلدها قصيدته البليغة التى قالها بهذه المناسبة ومطلعها :

زرناك فى زُرَدِ الحديد وفى القنا والمشرفيّة والخيول الشُّزَّبِ

وولجنا هذه المدينة الأسطورية والتى ظلت قلعة الإمامة الهاشمية ما يزيد على ألف عام ، كما كانت مركز إشعاع علمى ساطع ظل ينافس صنعاء لعدة قرون ، وفيها ضريح الإمام الهادى مؤسس الإمامة فى اليمن ، ويقع على يسار الداخل إلى المدينة من باب اليمن وإلى جانبه يرقد ولداه المرتضى والناصر .

وتضم الحوطة العديد من مشاهير أئمة اليمن ، ولست فى حاجة هنا إلى ذكر موقف هذا الإمام العظيم ونضاله الطويل فى سبيل الله ومن أجل الإسلام واليمن ، ولا إلى الإشارة إلى علومه واجتهاداته فقد روتها كتب التاريخ العربى والإسلامى .

لقد أحسست وأنا ألج هذه المدينة التاريخية بغبطة عظيمة ، وقد دخلتها فى رابعة النهار بعد أن تجمع فى سوقها خلائق كثيرة من سحار وجُماعة ورازح ونجران ووائلة وعاهم وخمر وحوث ، جاءوا ليعرضوا سلعهم ويبيعوا ويشتروا . وبهرنى ما شاهدته فيها من خيرات ونعم تزخر بها أسواقها العديدة ، فسوق

الحبوب وسوق الكروم وسوق البن وسوق التمور وأسواق متعددة أخرى .

وأنزلت بحجرة صغيرة فى مبنى ضخم يسمونه « المقام » تطل نوافذها على ميدان فسيح يقوم فيه سوق التمور ، وقد بنى هذا المقام عام ١٣٥٠ هـ خصيصاً باسم الأمير أحمد بن يحيى حميد الدين الذى كان يلقب بسيف الإسلام واخيراً بولى العهد ، ثم الإمام الناصر « ١٩٤٨ — ١٩٦٢ » ، وقد جاء من صنعاء على رأس جيش من قبائل حاشد وأرحب إثر احتلال الجيوش السعودية لنجران .

ويعتبر « المقام » أكبر مبنى بالمدينة ، كما يعتبر نموذجاً حيّاً للفن المعمارى فى لواء الشام وقد بنى كله بالزابور[1] . وكانت حجرتى واحدة من تسع حجر متراصة فى دور ثانٍ من مبنىً أقيم فى فناء الدار خصيصاً لأتباع الأمير ورجال حاشيته ، وكانت كلها حال وصولى صعدة خالية من السَّكْن إلا من حجرة تقع على رأس السُلَّم كان يسكنها خمسة من جنود الشرطة ، وأخرى كانت تفتح فى النهار

---

(١) الزابور فى صعدة وصنعاء البناء بالطين فى شكل مداميك ويعرف بالبناء المعجم . يقال : زبر البناء أى وضع بعضه على بعض ، وزبر البئر طواها : « المعجم الوسيط » .

ليمارس فيها قاضي صعدة عمله ، على أنه كثيراً ما كان يزاوله في داره فتظل مغلقة .

وتكاد الوَحشة المخيمة على هذا المكان لتفصح عما مني به من هجران طيلة أربعة عشر عاماً أى منذ غادره الأمير بخيله ورَجِله ، الأمر الذى جعل سكناه أمر غير مرغوب فيه إلا لمن ألجأته الأقدار مثلي ، أما عالم الزواحف وهوام الطير والفئران فقد وجدت منه خير مأوىً للعيش في أمان .

وما إن ألقيت في هذا المكان حتى وجدتني وكأنني إنقلبت إلى ملكوت آخر ، وكان لا بد لي — قبل كل شيء — من الحصول على فانوس أتمكن به من الاهتداء في جنح الظلام إلى بيت الماء الذى يقع في الركن الشرقي والذى لا بد لي كي أصل إليه من أن أعبر الصالون بطوله ثم أنعرج في ممر مظلم ينتهي إلى بهو قد تكدست أرضيته بافرازات البوم والوطاويط .

وكانت حشود الفئران الكثيفة تقض مضجعي ، وكان الوقت المحدد لزحفها على حجرتي هو الوقت الذى أنقلب فيه إلى مخدعي ، فتراها تنساب من شقوق الباب لتطوف من حولي ، فكنت في هذا الوقت أشبه باليعسوب في مملكة النحل .

وكان تعايشنا سلمياً خالياً من العدوان المتعمد ، ولم

يحدث بيننا أى شىء يعكر ذلك التعايش غير مرة كنت راجعاً من بيت الماء وقد انطفأ فانوسى فوطأت بيمناى جمجمة فأر ضخم ،فسمعت شيئاً لم أسمعه فى حياتى: صوت رفيع إذا كان هناك صوت أشبهه به فهو إلى صوت الطفل الرضيع أقرب . ومرة أخرى عند ما نهضت ذات مساء من مخدعى وأهويت بيدى متحسساً المصباح فلم تقع إلا على عنق أحد أولئك الأصدقاء فضغطته بشدة وبصورة لا إرادية حتى خنقته فمات بعد أن أطلق عدة صفَّارات مذهلة .

زرت فى اليوم الثانى من وصولى صعدة ناظرة الشام[1] بقلعة السنارة ، وكان شيخاً وقوراً وعالماً مشهوراً ، وقد قابلنى بكرم وعطف ، كما زودنى بارشاداته حول طلب العلم ، وظللت فى ديوانه حتى جاء وقت المواجهة[2] فخرج إلى صحن القلعة وجلس هناك على حجر ملساء ، وتقدم إليه أهل الشكاوى الواحد تلو الآخر فى تهيُّبٍ وإجلال ، وأخذ يتكلم مع كل منهم يسائلهم عن أحوالهم ويقضى حوائجهم ، ثم نهض ليقوم بدورته[3] المعتادة ، وجعل يسير على قدميه حتى أسفل القلعة

(١) هو السيد محمد بن حسن الوداعى . والناظرة معناه أمير اللواء

(٢) المواجهة : مقابلة الناس .

(٣) الدورة : الجولة القصيرة .

وقررت لفرط حيائى أن أظل منكس الرأس

وهنا لك قدمت له بغلته الشهباء وسار حتى وصل إلى قرب « رحبان » ثم انعطف راجعاً إلى السنّارة . وظللت أسير فى موكبه مع السائرين إذ ليس هناك ما يشغلنى عن ملازمة هذا الطود من العلم الذى كانت شهرته قد طبقت اليمن .

وتوقف على باب مسجد صغير خارج القلعة وما إن ترجّل عن بغلته حتى كان المؤذن يبدأ النداء لصلاة الظهر ، وكنت قد سمعت أن هذا الناظرة دقيقٌ ومنظمٌ فى كل تصرفاته ، متحرر مجتهد فى مذهبه وعقيدته .

وتقدم فصلى ركعتين خفيفتين ثم أمّ بنا الظهر وانصرف ، ولما انتهيت من صلاتى ونويت مغادرة المسجد إذا بأحد حرسه يدعونى لتناول الغداء معه ، وسرت أقدم رجلاً وأؤخر أخرى إذ كنت أتهيب موقفى أمام هذا الجهبذ الذى كان يعتبر الرجل الثانى فى اليمن بعد الإمام يحيى من ناحية العلم والجلال ونفوذ الكلمة .

وتقدمت إلى مائدته المتواضعة ، وقررت — لفرط حيائى — أن أظل منكّس الرأس ، ولمس هذا منى فبدأ يلاطفنى بأخلاق ملائكية ، ثم بدأ يناقشنى حول بعض مسائل بسيطة فى الفقه ، ولكنه سرعان ما عرف أن دماغى لا يزال

أفرغ من فؤاد أم موسى ، ولحظت فى وجهه ملامح الرثاء والخيبة معاً .

وقد وقع ذلك مني موقعاً مؤثراً أضرم مشاعرى وأذكى عزيمتى ؛ صدقونى أن هذا الموقف قد غير مجرى حياتى فقد ودعت هذا الإنسان الكبير وفى ثوبى إنسان آخر ، إنسان اصبح يحب العلم من أجل عظمته بعد أن جاء يطابه من أجل ماديّته .

وأخذت أنحدر فى عقبة السنّارة فى خطىً ثابتة رتيبة مستوحاة من إيقاع العلم الرنّان الذى تحول حبه فى نفسى إلى قيثارة علقت أوتارها بنياط قلبى . وانعطفت إلى سهل رحبان تحدونى ثورة عارمة تنذر بتقويض معاقل جهلى وصروح غباوتى .

* * *

(٩)

كان جامع الإمام الهادى هو الكعبة[1] التى يؤمها المتبتلون وطلاّب العلم فكان أشبه شيء بالأزهر ، فهو روضة للعبادة ودار للعلوم . إنّه المدرسة التى سأنخرط فيها كطالب وأتولى شئونها ككاتب . ولا يبعد عن المكان الذى كنت أقيم فيه أكثر من مائة متر ، وكنت أقضى فيه طيلة صباحى حتى تؤدّى الظهر ثم أنقلب إلى حجرتى لتناول طعامى ، وكان يقوم باعداده وإحضاره لى خباز لا يبعد كثيراً عن مقر سكناى أما بعد الظهر فكنت أتفرغ لعملى الوظيفى .

وكان لا بد لى من أجل أن أنتظم إلى المدرسة كطالب أن أبدأ من شعبة الآجرومية وقطر بن هشام ولكن كيف بالغضاضة التى تخامرنى ؟ ! فأنا خريج الثانوية العامة ومعهد الكُتّاب وكاتب المدرسة ، وكيف بشخص يحمل هذه الاعتبارات يجلس فى حلقة المبتدئين جنباً إلى جنب مع الأحداث

---

(١) الكعبة : كل بيت مربع ، الغرفة ، البيت الحرام بمكة «قاموس» .

الصغار ؟ ! ولكننى فى حاجة ماسة إلى تلقى تلك الدروس الأولية التى تؤهلنى لأن أكون طالباً فى الشعبة الثانية أو الثالثة على الأقل ، لأن ما كنت قد تلقيته قبلاً لم يكن إلا مجرد ملخصات تبين أن الفاعل يكون مرفوعاً والمفعول يكون منصوباً . وعرفت أن هنالك أشياء كثيرة يجب على أن أتعلمها كالأدب والبلاغة والفقه والتفسير والمنطق وأصول الدين والحديث وعلومه ومصطلحاته .

وكانت دار علوم صعدة حينذاك المصدر الثانى للاشعاع العلمى بعد دار علوم صنعاء ، بل إنها — بجهود الأستاذ الشيخ — أصبحت تنافسها بل تفوقها فى نواح كثيرة أهمها النظام والجو العلمى الهادئ وكثرة أشياخها الذين اشتهروا بالتبريز فى شتى المعارف وفنون العلم .

واهتديت فى النهاية إلى طريقة قويمة وهى أن أقوم بجمع الكتب الأولية كمتن الأزهار فى الفقه الزيدى ومتن الفرائض وآجرومية دحلان وقطر ابن هشام وشرح قواعد الإعراب ومختصر الثلاثين المسئلة فى التوحيد وشرح الملحة للفاكهى وإيسياغوجى فى المنطق ثم أعكف على دراستها .

فالتمست كل هذه الكتب من حافظ مكتبة المدرسة ، وأخذت فى مواصلة دراستها ليل نهار ، مع عرض بعض

الإشكالات على بعض الأصدقاء الذين كانوا يترددون لزيارتى، من أشياخ المدرسة وطلابها المتقدمين ، ومن بينهم ذلك الشيخ الفاضل الذى تسلمت منه عملى الوظيفى والذى كان يقوم به بتكليف من الأستاذ الشيخ ، وقد أخذ هذا فى ملازمتى، ومساعدتى على حل الكثير من مشاكلى .

ولكن هذا الشيخ الجليل لم يدم طويلاً ؛ فقد جرى له أغرب حادث سمعته فى حياتى ؛ ذلك أنه ذات مساء أقيم بجوار داره حفل عرس ، وحدث أن مرّ موكب الزفاف ويسميه أهل صعدة « الهود » من تحت نافذته ، وكان المحتفاون يطلقون بنادقهم فى الهواء ، فرأى الشيخ أن يطل برأسه ليشاهد الموكب فأصيب برصاصة فى رأسه أردته قتيلاً . وكان أهله جميعاً ضمن المدعوين إلى مأدبة العريس ولهذا فلم يفطن لموته إلا آخر الليل عند ما عاد أهله .

وقد أحدث مصابه ضجة مروِّعة فى المدينة كما أحدث موضوع دفنه نقاشاً حاداً بين العلماء ؛ فقد اختلفوا فيما إذا كان يعتبر شهيداً فيدفن بثيابه المضرجة دون غسل ام لا بد من غسله ، وادى الأمر إلى تنازعهم إلى الناظرة فأفتى بوجوب غسله بحجة انه لم يقتل فى معركة الجهاد فى سبيل الله ولكن هذا لا يعنى انه ليس شهيداً .

وفى هذه الأثناء قدم من صنعاء مأمور لتوزيع الصدقات

على الفقراء وكان أحدخريجي دار علوم صنعاء فأنزل فى حجرة بجوارى ، وقد أنست به كما أنس بى ، وكان الفقراء يهرعون إليه من كل صوب ، وبالرغم من أن المبلغ الذى كان يعطى للفرد هو ريال واحد فقط فقد كانت الجماهير تهرع فى تهافت يدعو إلى الرثاء حتى خلت أنه لم يبق فى بيوت المدينة وما جاورها أحد غير النساء ، وصحت لدى نظرية ذلك القائل — وقد أمره الإمام يحيي أن يحصى فقراء صنعاء — فقال : ولماذا نتعب أنفسنا ؟ أليس أقرب من ذلك أن نحصى الأغنياء[1] ؟.

* * *

وجاء البريد مبشراً بقدوم شخصية كبيرة إلى صعدة وإلى المقام بالذات ذلك هو قاضى القضاة أو ما كانوا يسمونه « حاكم الشام »[2] ، وبدأ المسئولون يعدون العدة لنزله ولم ينته الأسبوع حتى كان الضيف قد وصل .

وامتلأ فناء الدار بالبغال والحمير فقد جاء بأسرته وكامل أثقاله فلا ترى إلا المتاع ينقل والأخراج تعتل .

واُتخذ المفرج مقراً لعمله الرسمى وهو حجرة واسعة ملاصقة لحجرتى والتى كان الأمير يستقبل فيها الناس ،

---

(١) أى لأنهم أقلية .

(٢) هو السيد مطهر بن عبد الله اليسانى .

ومن نوافذها الواسعة « الجُرفُ » يستعرض جيوشه وهى تمر فى الميدان ، وأحياناً يطل على قبائل الشام وهى تؤدى السلام التقليدى والحوار كل قبيلة بأسلوبها الخاص ولهجتها المستقلة وبلاغتها فى التعبير إذ أن لكل قبيلة طابع خاص ؛ فشعر جُماعة يمتاز بالحماس وهمدان بالفصاحة وسحار بحسن الأداء وخولان بقوة المعنى ، كما أن لكل قبيلة قيافتها الخاصة فتعرف جُماعة بسبائكها[1] ووائلة بذيول أكمامها وسحار ببياض ثيابها وخولان بطول ارديتها .

ويكادون يتساوون جميعاً فى وضع العِمَّة أو ما يسمونه « القُبع أو الغُترة » وهى تختلف تماماً عن العمَّة التى يرتديها العلماء فهذه من الشاش الأبيض رتلف على قلنسوة ضخمة عدة لفات تزيد فى صعدة على السبع .

أما تلك فتكون من القماش الأسود أو الصوف الأبيض ، ولا بد من أن تكون مربعة الشكل ليمكن إفرادها من النصف لتصبح فى شكل « مثلثين متطابقين » تغطى الرأس من وسطها ويرسل طرفاها على العنق ، ثم يلف الضلعان المتطرفان حول الرأس بصورة عكسية على عقال من الحرير ، أما فى جهة

(١) جمع سبيكى : الخنجر الطويل .

وائله « المشرق » فيترك الشال دون لف كما هى العادة فى الحجاز .

* * *

كان هذا الحاكم عالماً جليلاً دمث الخلق ثاقب النظر حسن المعاشرة ، طويل القامة ، جميل الهندام ، يرتدى جوخاً[1] أزرقاً ويتمنطق حزاماً مذهباً يتوسطه خنجر ثمين ، ويضع على رأسه عمة خضراء ويرسل بين كتفيه شالاً من الصوف الناعم الموشّى بالحرير ، وكان يحرص على تطبيق الخصائص المستحقة لمثله باتقان ، فهو إذا خرج تحف به الجنود ويساق عناق أو عناقان من الخيل من خلفه وتُرفع فوق رأسه مظلّة فخمة ، ولا يمس نعله بل يُلبّس إياها ويُخلّس لا سيما عند دخوله المسجد وخروجه منه .

وكنت أقضى بجانبه معظم أوقاتى ، وقد تكرم وفتح لى مع كاتبه وإبنه درساً فى النحو وآخر فى الفقه ، وانظم إلينا فيما بعد الرئيس[2] أحمد يحيى الثلائى ، وكان هذا قد قدم على رأس فوج الرشاش كأمير لمفرزة صعدة ، وقد رأى فى

---

(١) سبق تعريف الجوخ .

(٢) كان « الرئيس » فى الرتب العسكرية يعنى « الرائد » ليوم .

فضيلة الحاكم وفيّ خير صديقين وبهذا كنا لا ننفك متلازمين ، وكان لطيفاً سامى النفس ، لين الجانب ، وعند ما طلبت منه مواصلة ما كان قد بدأ به من تعليمى اللغة الإنكليزية كما ذكرت آنفاً تكرم فأعطانى كلما بقى على ذهنه من المفردات والقواعد .

ومما بدأت اقرؤه على الحاكم متن الأزهار مفهوماً ومنطوقاً وشمس المقتدى فى المنطق وبعض فصول فى شرح الخمسمائة آية فى الأحكام .

وفى ذات يوم تسلمت رسالة من الأستاذ الشيخ من تعز يخبرنى بأنه انتهى من مهمته وأنه قادم ، وما هى إلا أسابيع حتى جاء إلىّ من ينبئنى بوصوله فهرعت لزيارته فى منزله فتلقانى بما جبل عليه من تواضع وأخلاق سامية ، ومن ثم ارتبطت به ارتباطاً وثيقاً بحكم الوظيفة والتلمذة ، ورأيت فيه خير مرشد ونعم أستاذ ، وكنت أجد فى مجالسته متعه كبرى ، كيف لا وهو اصمعىّ عصره وسيبويه زمانه ، وكان من النشاط والحيوية بحيث لا يترك وقتاً يمر دون أن يذاكر فى مسئلة أو يملى فى كتاب ، وكان مبرزاً فى كل فنون العلم لاسيما العربية .

أما الأدب فله نثر جزل وشعر رائق وأما فى مجال

الفكاهة والنكتة والأحجيـّة والألغاز الأدبية فلم أجد فى زماننا أعظم موهبة منه ، وكانت له فى الجامع دعامة يستند إليها عند ما يلقى دروسه فى الفقه والعربية والمنطق ، وكما كان مهاباً لدى المشايخ والطلبة ، كان أيضاً محبوباً لدى الجميع وإلى حد كبير ، وقد صرت بعد ذلك أحد روّاد حلقته الكبيرة .

* * *

وسافرت بعد أن أتممت عاماً ونصفاً فى إجازة إلى صنعاء ، وعند ما زرت الناظرة لتوديعه تفضل وزوّدنى بتوصية إلى الإمام يحيى كما أمر بتعيين مرافق معى ، ولم أسافر هذه المرة مع القافلة بل سافرت بمفردى ولهذا فلم أنتظر ليوم الثلاثاء ، وقطعنا المسافة فى أربعة أيام ونصف ، واستقبلنى أبواى بشغف كما اجتمعت كل الأسرة للترحاب بى .

وفى صباح اليوم الثانى توجهت إلى مقر الإمام يحيى بدار الشكر[1] والفيت الباب موصداً لأن الإمام لم يهبط بعد فانتظرت فى زمرة المنتظرين ، وما هى إلا دقائق حتى فتح باب الساحة ، وهذا يعنى أن الإمام قد استقر على كرسى المواجهة العامة . وأقبل كتبته واحداً إثر آخر ، ودلف الوقوف يدلون بأسمائهم إلى الحاجب الواقف على عتبة الباب ، وبعد

---

(١) هى الآن إدارة أمن صنعاء شرق ميدان التحرير .

لحظات كنت أقدم للإمام توصية الناظرة ، وبعد أن فك ختامها أخذ يقرؤها ، وبعد أن حدّق نظره فيّ كتب على التوصية كلمتين رفعت مرتبي عشرة ريالات .

لقد كانت المرة الأولى التي أرى فيها وجه الإمام يحيى عن كثب ، وكان جالساً على كرسيّ من الخشب أما كتبته فجثاة على الأرض من حوله ، وكان فى إمكان أى إنسان أن يقابل الإمام ويبث إليه حاجته ولكن ريال الحاجب لا بد منه يناوله سراً .

وكانت جلسته الصباحية تمتد حتى قبيل الظهر ، ثم تعقبها جلسة أخرى بعد الظهر فى الديوان تستمر حتى الغروب ، وقد خصصت الأولى لاستقبال الشكاة وأهل الحوائج والظلامات أما الثانية فلكل ما يتعلق بالرسميات . ولا بد للإمام من أن يطّلع على كل شيء ليوقعه بيده أو يأمر بختمه ، وكلما يوضع عليه توقيع الإمام أو ختمه يجرى تنفيذه فى سرعة الريح .

وكان لكل عضو من أعضاء ديوان الأمام لواء يتولى شئونه ، كما كان لكل منهم أسلوبه الخاص فى استغلال نفوذه باسم الإمام ، حتى صيروا من الديوان ميدان تنافس لجمع الأموال وبناء القصور واكتساب الضياع .

وتفرّع من هؤلاء عصابة امتدت جذورها فى كافة أنحاء

البلاد لا مهمة لها غير الرشوة ونهب المواطنين وابتزاز أموالهم لتتحول إلى قصور وضياع وسيارات، وللموظف فى القضاء أو الناحية أن يعمل مايريد طالما كان جسر الهدايا ممدوداً بينه وبين عضو الديوان .

وقد بنى الإمام وبعض أبنائه عدة قصور كما اكتسب أراضٍ واسعة ، وكان هذا أعظم مدعاة للولاة فى تنافسات كان الشعب إزاءها كبش الفداء .

كان الإمام يحيي حينذاك شيخاً فى عشر الثمانين مصاباً بأمراض الروماتيزم المفصلى فلايستطيع أن يتحرك من مكانه إلا بواسطة رجلين ، وقد حكم اليمن خمسة وأربعين عاماً فى غاية من الحزم واليقظة ، إلا أنه لم يقدم لليمن شيئاً من الإصلاح الحقيقى ، أولاً لجهله التام بالثقافة العصرية وثانياً لأن مستشاريه ورجال دولته « أهل الحلّ والعقد » كانوا يتزلفون إليه بما تتقبله عقليته ، وأى امرء يحاول أن يقول كلمته لا يلبث أن يكون فريسة لأولئك المتملقين .

وقد جعل لهم قربهم من الإمام مركزاً مهاباً فى أوساط الشعب ، ومعنى هذا أن البلاد كانت تحكم حكماً أوتوقراطياً مستمداً من مركز الإمام الروحى وتأثيره القوى ، فكان الشعب بالنسبة لهؤلاء كالبقرة الحلوب والإمام هو الماسك بقرونها .

ولهذا شاع السخط والتذمر وانتهى بثورة سنة ١٩٤٨ ، وكان فيها كثير من دعاة الإصلاح وآخرون من دعاة التخريب ورأى الإخيرون أن فى عبد الله بن أحمد الوزير كزعيم روحى خير من يمسك تلك القرون .

وقد بقيتُ فى صنعاء شهراً لمست خلاله ما كان ليخطر على حسبانى من تذمر عام وبطالة قاتلة وركود ورشوة ، ومر أسبوعان احتجب الإمام خلالهما مريضاً ، وتهامس الناس بموته الأمر الذى اضطره قبل أن يبل من مرضه إلى الخروج عابراً شوارع صنعاء فى سيارته المكشوفة .

* * *

وحينذاك أباح لى أبى بمفاجأة طريفة وهى الزواج ، فقد أصبحت فى نظره ونظر بقية الأسرة ابن عشرين عاماً وهذا يعنى أنى قد تأخرت كثيراً ، ولكنى أعلنت رفضى معتذراً بضرورة مواصلة دراستى ولو لعامين آخرين ، فألح علىّ ولم أملك إلا الموافقة ، وبالرغم من أن متطلبات الزواج كانت ضخمة بالنسبة لإمكانيات أبى فقد تمكنا من اجتياز الصعاب وإقامة زفاف لائق معتدل ، وكانت المراسيم التقليدية قد فرضت نفسها فكان لا بد من ليلة الحلفة والنشّاد ، ثم يوم الصباح والثالث والسابع والعاشر ، وقد اغتنمت هذه الفرصة فاستضفت أصدقائى ومعارفى .

- ١٠ -

وبعد انتهاء فترة إجازتى عدت مع أهلى إلى صعدة ، وكان أحد أصدقائى قد رتب لى سكناً خاصاً لقاء ريال واحد فى الشهر ، وكان مرتبى قد أصبح خمسة وعشرين ريالا ، وهو مبلغ نافع بالنسبة لرخص الأسعار حينذاك فكان الريال يأتى بخمسة أرطال من لحم الضأن الفاخر أو سبعة أرطال من لحم البقر أو رطلين من السمن البلدى ، وكنت أشترى القدح التمر الممتاز بخمسة ريالات ومثله الزبيب الأسود الصعدى ، أما الفواكه فعشرة أرطال من العنب ، أوما يساوى عشرة أرطال من التين الأبيض الشامى ، أو ما ئتى حبه من الخوخ.
وكان يرد إلى سوق صعدة فى موسم الخريف أحمال عديدة من العنب على اختلاف أنواعه ، وأجوده الرازقى الدقائقى وهو شبيه بالبياض الروضى إلا أن حباته أصغر وأجود ، ويليه عنب العبدين الأسود « الجعملى ».

* * *

ووجدت الأستاذ الشيخ قد حول مكتب الإدارة من مبنى « المقام » إلى جناح ملاصق لجامع الهادى ، وكان لهذا الجناح بابان : شمالى ويقع على الشارع الرئيسى يُصعد منه بواسطة سلم ، وجنوبى وينتهى بواسطة سلم طويل بصرح الجامع الغربى . ويتفرع من أعلا السلم عدة أروقة للطلبة ينزل فى كل رواق طلبة معينون من أهل شهارة أو حبور أو برط أو خولان أو غير ذلك .

وإلى جانب مكتبنا فى نفس البهو يقــع مكتب أوقاف جامع الهادى ، وكان يديره شخص من شهارة متدين ظريف يسير فى أعماله وأوقاته على أدق نظام ، وقد ارتبطت به بروابط أخوية متينة دامت حتى رحيلى من صعدة ، وكنت أتعامل معه كزملاء فهو كاتب الوقف وأنا كاتبا لمعارف ، كما كنت شريكه فى تلك النفحات التى كان يوليناها فضيلة الناظرة ، إذ كان يمنحنا قبض بعض العزل ليكون لنا نصف عشر زكاتها كمساعدة مقابل إشرافنا على توريد الحبــوب ووضع حساباتها .

وقررت أن أقتصر فى دراستى على بعض الكتب دون بعض بالنسبة لكل فن على حدة ، فاقتصرت فى النحو على ابن عقيل على الألفية وبذلك تمكنت من قراءة المغنى دون

شيخ ، وفى المنطق على إيساغوجى ، ثم شرعت فى قراءة الخبيصى على تهذيب المنطق ولكنى لم أجاوز المقصد الثانى ، وفى أصول الفقه على كافل لقمان وبه تمكنت من دراسة الغاية وفهمها دون شيخ ، ولم يبخل علىّ الأستاذ الشيخ بأى كتاب احتجت إليه مما تحويه مكتبته الزاخرة بفرائد الكتب ، ولهذا قرأت الكثير من كتب الأدب والحديث والفقه والتفسير ، ولا غرو فقد كان للأعوام الخمسة التى قضيتها بجانبه أثر كبير فى تشكيل شخصيتى .

* * *

كانت صعدة حينذاك تستقبل بين آونة وأخرى العديد من الإشاعات عن خطورة الأحوال السياسية ومرض الإمام ودنوّ أجله ، وكان الأحرار اليمنيون فى عدن وصنعاء يترقبون موته لإعلان الدستور نظاماً وعبد الله بن أحمد الوزير ملكاً على البـــلاد . وحدث فى هذه الأثناء أن نقل إلى الإمام يحيى أن مؤامرةً تحاك فى صـــعدة يتزعمها ناظرة الشام والشيخ عبد الله بن على منّاع والرئيس أحمد يحيى الثلائى ، فأمر الإمام باســـتدعاء الناظرة إلى صنعاء ليرأس محكمة الاستئناف بعد موت رئيسها الأول ، فغادر صعدة قبل قيام الثورة بشهر واحد ، وجاء خلفه على الفور(١) ، وكان هذا

(١) كان هو عبد الرحمن بن أحمد السياغى .

من عتاة الإمام وعلى نقيض سلفه تماماً ، فقد تحمل من الأنانية واللؤم ما لا يطيق حمله غيره ، ولعله أوصى بأن يكون على يقظة من بعض الأشخاص .

وقد اكتشفت أنى أحدهم عند ما هبط من قلعته فى اليوم الثانى أو الثالث من وصوله واتجه إلى مكتبى فوراً ، وجئت وهو ينتظرنى على الباب بموكبه الضخم ، وما إن استقر فى مكانه حتى أخذ يوجه إلىّ خطاباته فى خشونة ، ولما جاء الثلائى وهم بأن يكلمه قال له فى قسوة : « انتظرنى فى الثكنات » ، وقبل أن يغادر مكتبى قال لى مودعاً : «تعال إلىّ بعد الظهر» .

واتجه إلى مكتب الحاكم لا ليزوره وإنما ليجلس فى مكانه ثم أخذ يستعرض شكايات الناس دون أن يلقى له بالا ، وبعدها نهض متجهاً إلى المفرزة « الثكنات » وحصلت بينه وبين الرئيس الثلائى مشادةٌ عنيفة ، ثم انقلب بعد ذلك إلى جامع الإمام الهادى ليصلى الظهر ، وهنا جرت له حادثة هبطت به من عليائه ومرغت كبرياءه ، وفى اعتقادى أنه لم يشهد مثلها فى حياته ، ذلك أن إمام الجامع — وكان عالماً مسناً خرفاً — قد أقام من نفسه قهرماناً لكل من يفوه بأدنى كلمة فى الجامع سواء فى أوقات الفرائض أو فى غير أوقاتها ما عدا قارئ القرآن أو دارس العلم ، وكان يرى أن الهمس فى الأذن أو القول

الحسن لا يكفيان فى زجر مرتكب هذه الخطيئة على حد اعتباره ، فهو ما إن يسمع كلمة حتى يتجه إلى قائلها فى سرعة خاطفة ، وقبل أن يقترب منه يصرخ فى وجهه صرخة يدوى لها الجامع ثم يطلق عنان لسانه فى شتم مهين ، أما إذا حاول هذا أن يرد عليه فلا ينتظر منه غير ما لا يسر ، ولهذا فكان من يبتلى به يفضل صون عرضه بل وجلده أيضاً على أن ينبس ببنت شفة .

وتراه فى مهمته هذه لا ينفك يذرع أرض الجامع مرهف الأذن مدقق النظر . وشاء صاحبنا بعد أن أدى تحية المسجد أن يتحدث إلى شخص بجانبه ولكن فى لهجة كبريائية حادّة وكأنه يصدر أوامراً أو يعطى تعليمات ، وهنا نهض الشيخ ثائر الأعصاب متخطياً رقاب المصلين ، واتجه صوب الناظرة الجديد ، وما إن وقف أمامه حتى أطلق تقريعه اللاذع بصوت متهدجٍ خشن ، ونظر إليه صاحبنا فى إبلاس ، وبدا كالمتردد بين أن يرد عليه أو يأمر بسوقه إلى السجن ، ولكن كلا الأمرين كان صعباً ، فقرر أن ينكفىء على الأرض بينما ظل الشيخ يلقى خطابه الهيستيرى ، وانتهى بأن ألقى بنفسه إلى إحدى الدعائم خائراً يلهث وكأنما تخلص من حمل ثقيل .

وانتهت الصلاة وخرج صاحبنا منكس الرأس إلى حيث امتطى بغلته عائداً إلى مقر الحكم .

ولم يُدل إلىّ عند ما زرته بعد الظهر بشيء سوى إشارة غامضة وهى : « عدم التدخل فيما لا يعنى » وقد اعتبرت هذا نصحاً تلقيته بالقبول وإن كان يعنى التوعّد الضمنى .

وأشيع يومئذ أنه رفع برقية للإمام يستعجل فيها استدعاء الثلائى ونقل فضيلة الحاكم إلى « ساقين » أما بالنسبة لى وللأستاذ الشيخ فقد اكتفى بالإيعاز إلى شخص مقرب إليه بمحاسبتنا ، وأحيلت برقية الناظرة إلى إمارة الجيش بالموافقة على استقدام الثلائى ، ولكنها لم تبعث خلفاً له إلا بعد قيام الثورة وقيام هذا بدور فعال فى تأييدها .

وقد جاء نبأ قيام الثورة فى صنعاء بطريق الصدفة ، ذلك لأنه لا يوجد فى صعدة لا دائرة تلغراف ولا محطة لاسلكى ، إلا أن أحد تجار صعدة كان يملك جهاز راديو وكان هو الجهاز الوحيد فى لواء الشام باستثناء جهاز آخر كان يملكه الشيخ ابن منّاع ، وقد تعودت أن أذهب مساء كل ثلاثاء إلى منزل هذا التاجر لاستماع إذاعة صنعاء إذ كانت لا تذيع إلا يوماً واحداً فى الأسبوع وهو يوم الثلاثاء ، وكان يحضر فيمن يحضر فضيلة الحاكم والرئيس الثلائى . وكانت الجماهير تزدحم تحت نافذة التاجر لتستمع إلى هذا العفريت الذى يتكلم من صندوق مقفل .

وليلة قيام الثورة ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٤٨ ذهبت كجارى عادتى ، ولم تكد الراديو تُفتح حتى سمعنا خبر قيام الثورة واضطلاع عبد الله بن أحمد الوزير بالإمامة ، وفى الحال انقلب كلٌ إلى داره لينتظر ما يأتى به الغد .

وكان الرئيس الثلائى قد اتجه إلى الثكنات ليجمع مفرزته ضباطاً وأفراداً ويبلغهم بقيام الثورة وبزوغ فجر جديد ، وقام بارسال ثلة من الجنود للقبض على الناظرة الجديد وبعض المسئولين فى قلعة السنارة ، ولكن هؤلاء لم يفعلوا شيئاً فما زادوا على أن كشفوا الخطة ، فقام الناظرة بارسال عامل السنارة ومعه بعض الرجال لالقاء القبض على الثلائى ، ودخل العامل صعدة قبيل الفجر ، وأبلغ الثلائى بالخبر فلم يملك إلا أن امتطى صهوة جواده وتسلل من باب صعدة الغربى « باب المنصورة » ومعه خمسة من حرسه متجهاً إلى صديقه ابن منّاع فى « الطّلح »(١) ، وظلت المدينة مغلقة لمدة يومين .

وجاءت الأخبار حاملةً نبأ إغتيال الإمام يحي ورئيس وزرائه القاضى عبد الله بن حسين العمرى ، وانتقال إبنه الأكبر« ولى العهد » من تعز إلى حجه ، حيث أعلن إمامته ولقبه وهو الناصر لدين الله . وأخذ يؤلب القبائل للقيام

---

(١) قرية تبعد ٥ كم عن صعدة غرباً .

بثأر أبيه المقتول ، كما نشر قصيدة سرعان ما انتشرت وذاعت .

وقام الناظرة الجديدة باستدعاء قبائل همدان وخولان ابن عامر وجماعة ورازح وآل عمّار ، وشهدت مدينة صعدة مواكب القبائل الضخمة تقيم الحوار وتنشد الزامل وتؤدى رقصات الحرب .

وكان راديو الثورة يبث أخبار انتصاراته ، ويناشد الأهالى بدعم الثورة والالتفاف حولها ، وكان الشيخ ابن منّاع وأحمد الثلائى هما الوحيدان الذان يسمعان هذه الأخبار ، فقد أصبح راديوا بن منّاع هو الجهاز الوحيد فى اللواء ، أما جهاز صعدة فان السلطات قد أمرت باسكاته .

وكان الثلائى يتلقى بيانات الثورة ويبلغها بدوره إلى سلطات صعدة ، ويطالبهم بالإنضواء تحت لواء الثورة فى الوقت الذى كانت صنعاء تعيش أيامها الأخيرة وتنتظر فى هلع اللحظة التى تقتحمها فيها جيوش الإمام أحمد ، فقد جاءت الأنباء بحشود ضخمة جهزها هذا وأن معارك عنيفة قد دارت فى « المحويت » و « عفار » ثم أخيراً فى « ضروان[1] » حيث اندحرت قوات الوزير بقيادة

(١) قرية تبعد عن صنعاء شمالا ١٣ ك م تقريباً

أشخاص من أسرته ، وأخيراً جاءت الأخبار بأن قتالاً ضارياً يدور حول صنعاء .

وبالرغم من النيران التى كان يطلقها جيش الثورة من أسوار صنعاء فى غزارة المطر وقصف الرعد فقد اندفع القوم بعد أن فتح لهم باب شعوب نحو قصر السلاح حيث كان يتمركز عبد الله بن أحمد الوزير ، وسيطر بعضهم على مدفع القصر ثم وجهوه إلى دار الوزير فخرج مذعوراً مستسلماً ، بينما اتجه الآخرون نحو المدينة فنهبوا أسواقها وكثيراً من بيوتها ، وهكذا دفع سكان صنعاء ثمن إنتصار الإمام أحمد فادحاً فى الوقت الذى كانوا يشعلون فيه النار على أسطح المنازل ويطلقون الزغاريد ترحيباً بالنصر .

وألقى القبض فى صنعاء على ما يقرب من مائة وخمسين شخصاً من زعماء الثورة ومسانديها وطيف بهم فى الشوارع ، واغتنم الأوباش الفرصة فصاروا يبصقون على وجوههم ويقذفونهم بالحجارة ، ثم ألقى القبض على عدد منهم فى تعز وسيق الجميع إلى حجة على الأقدام ، وهنالك قطعت رأس عبد الله بن أحمد الوزير وبعض أقاربه وكبار الثائرين .

إن الأحداث التى اكتنفت ثورة سنة ١٩٤٨ كثيرة ومتشعبة ولا يسعها إلا مجلدات وقد تحدثت عنها وعما تعقبها

من ثورات وانتفاضات فى كتابى « اليمن عبر التاريخ » .

ولقد قلت فيما تقدم أن الوضع كان قبيل الثورة مزعزعاً بسبب عجز الإمام وتعلق كل شيء بديوانه حتى خلا الجو للعابثين والمستغلين وكان لا بد لأولئك القبائل الذين دخلوا صنعاء فى زمرة الجيش — وفيهم المظلوم والمنهوب — أن يسترجعوا حقوقهم ويستردوا أموالهم فنهبوا قصور العابثين نهباً ذريعاً وشاركهم فى ذلك بعض الأمراء ولم يكتف بعضهم بالنهب بل قاموا بسحب المرتشين وتجار الشرع الشريف فى الشوارع كما وقع لعبد الله الشماحى وغيره ، ودخل البرئ فى ذنب الشقى من باب « واتقوا فتنةً ... الآيه » .

وكان السيد عبد الله بن أحمد الوزير أحد كبار الدولة المرموقين بل كان فى مقدمة أهل الحل والعقد الذين بايعوا الأمير أحمد بالإمامه ، بالرغم مما كان بين آل الوزير وبين هذا الأمير من حزازات تعود إلى أيام اضطهاده للسيد على بن أحمد الوزير وعزله من إمارة تعز والنزوّ على منصبه .

وقد وضعت الخطة لاغتيال الإمام يحيى فى منزل عبد الله بن على الوزير ببئر العزب ، ومنه توجه القتلة على سيارته إلى ضاحية صنعاء الجنوبية حيث أطلقوا عليه وابلاً من الرصاص أثناء عودته على سيارته من « حزيز » .

وجعل بعضهم من سجنهم فرسان الطيف المقدس

وكان كبار آل الوزير على رأس تلك الحملات التى وجهت لمنازلة قوات الإمام أحمد القادمة من حجة .

وكان دعاة الدستور هم الثوار الحقيقيون[1] ، ولكنه اندس بينهم أشخاص كانوا « ما بين ساخط ومقلد وطامع ورابع على الهامش » ، فالتقوا جميعاً فى سجن حجة المسمى « نافع » ، وجعل بعضهم من سجنهم فرسان الطيّف المقدس فيما بعد ، فما إن خلا لهم الجو حتّى عادوا يتمرغون فى أوحال الانتهازية والتسلط لابسين مسوح الرهبان وعمائم التضليل من جديد ، وما ذلك إلا حفاظاً على برجوازيتهم المترفه وطُعَمِهم المغموسة بدماء الكادحين ، كما صاروا يتفننون فى حرق بخور التزلف والتضليل فى أعتاب الفئات الوطنية — نفس موقفهم مع حكام العصر المباد — مبينين مواضع الداء على حد زعمهم ، بينما هدفهم الحقيقى هدم الوحدة الوطنية وطعن الثورة من الخلف ، ولكن هذا — فى الواقع — لم يعد خافياً على تلك الفئات الذكية التى أصبحت على علم من أن هؤلاء هم أصل الداء ومكمن البلاء[2] .

---

(١) هم : أحمد الحورش ، حسين الكبسى ، محيى الدين العنسى ، محمد محمود الزبيرى ، زيد بن على الموشكى ، صالح المسمرى ، أحمد صالح البراق ، وبعض الضباط والمشايخ من آل أبو رأس وآل الشايف وغيرهم .

(٢) كتب فى ١٥/ ٦ / ١٩٦٩ .

- ١١ -

كانت مدينة صعدة قد بدأت تستعيد نشاطها بعد مغادرة الجيوش لها إثر سقوط حكومة عبد الله بن أحمد الوزير ، أما الرئيس الثلائى فقد استدعاه الإمام أحمد إلى « حجة » ولم يسجنه بل أرسله إلى «صنعاء» وهناك أمر به أحد الأمراء فزج به فى سجن « الرادع » ثم أفرج عنه بعد ثلاثة أشهر واستدعى إلى «تعز »حيث أعاده الإمام أحمد إلى وظيفته الأولى كمدرب للجيش .

وعادت الحياة الدراسية كما كانت وامتلأ صحن الجامع بحلقات العلم ، وهدير الدارسين وأصوات المشايخ يلقون دروسهم فى نشاط ، وترى كل طالب قد انسدح على بطنه ماداً رجليه إلى الخلف ، أما عمته فقد جعل منها كرسياً لكتابه ، وأما حزامه فقد خلعه ووضعه جانباً ، ومن هذه الحلقة وتلك تنبعث أصوات هادئة لا تلبث أن ترتفع عندما تحتد المناقشة ويحتدم الجدل .

وكان يوم الخميس هو اليوم الذى حدده الأستاذ الشيخ

لإلقاء الضوابط الأسبوعية لجميع الحلقات ، فلا تسمع إلا ضوضاء فقهية وأصولية ومنطقية وتفسيرية كلها تنطلق فى آن واحد لتكوِّن فى الهواء مزيجاً من المعارف كلها .

ونادراً ما كانت تحدث خناقات أو مشاجرات بين الطلبة ، وإذا حدث شيء من هذا القبيل فينهض المتشاجران إلى الصرح حيث يستجيزان رفع صوتيهما ، أما فناء الجامع فهو مقدس عن الضوضاء واللغط عند الجميع .

وكان حادث « الحيدانى » هو الحادث الوحيد الذى لا ينساه الجميع ؛ فقد وقع لهذا لوثة عقليّة بصورة مباغتة وفى الوقت الذى كان الجامع يغص بالحلقات ، وكان هذا منسدحاً كزملائه فاذا به ينهض — وكان قوياً بدنياً — ثم يتجه إلى حلقة أخرى وقد سل خنجره من قرابه ليهوى به نحو عاتق شيخ الحديث محاولاً قتله . فأصابه بطعنة خفيفة ، فما كان من هذا إلا أن مسك بقدمى المعتوه وطرحه على الأرض وبقى معه فى صراع بينما تفرق الجميع شذَرمذَر ، حتى إن أحد الأشياخ لم يجد فسحةً من الوقت لارتداء عمته فغادر الجامع مذعوراً ، ولم يفطن لذلك إلا فى الشارع عند ما أيقظه أحد المارّة .

وتراجع عدد صغير من الطُلاب وعلى رأسهم الأستاذ الشيخ فانقذوا شيخ الحديث بعد عراك مرير . وسيق المخبول

إلى السجن ثم أخرج بعد أيام وأكتفى بقيد يديه ، وظل يهيم على وجهه فى صعدة لعدة سنوات .

وأتيح لى فى هذا العام التعرف على عدد من الأشياخ المجتهدين والطلاب النابغين ، وقد حذوت حذوهم فى التقشف وتكبير العمامة وإطالة الأكمام وإسبالها وارتداء القميص الطويل[1] دون أن يكون من تحته شيء ، وكنت إذا عقدت أكمامى إلى الخلف فلا مانع لدىّ من أن يظل ساعداى وعضداى عاريات تبعاً للعادة .

ورأيتنى بعد ذلك مستعداً لحضور الحلقات الكبرى التى تلقى فيها الدروس فى أصول الفقه والكلام وعلم الصرف ، فكنت أحضر حلقة المناهل[2] وحلقة الشرح الصغير[3] وحلقة البحر الزخار[4] .

---

(١) هو أشبه شيء بالجلابية المصرية ولكن اكمامه طويلة وعريضة .

(٢) عنوانه : « المناهل الصافية شرح الكافية » فى الصرف للقاضى لطف الله بن محمد الغياث المتوفى سنة ١٠٣٥ هـ « ١٦١٤ م » .

(٣) فى المعانى والبيان والبديع : مجموع شامل لكتاب « مفتاح العلوم » للسكاكى وشرحه للتفتازانى وحاشية عليه لليعقوبى .

(٤) هو « البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار » فى الفقه للأمام أحمد بن يحيى المرتضى المتوفى سنة ١٤٣٧ م أعظم مجتهد وأكبر مؤلف عرفته اليمن ، وله أربعون مؤلفاً فى فنون العلم والعرفان ويعتبر أحد أجداد المؤلف من قبل أبيه .

وتمكنت من الحصول على منزل صغير بالقرب من منزل الأستاذ الشيخ فيما يسمى بدرب المام فكنت معه فى الجامع وفى مسجد الناصر وفى تلك الرحلات التى كنا نقوم بها معاً إلى ضواحى صعدة لتفقد أراضى الأوقاف . . .

وأطلعت على كثير من الأحوال الاجتماعية سواء فى الريف أو فى المدينة ، وقد وجدت أن الريف فى صعدة لا يختلف كثيراً عن أرياف اليمن الأخرى فالعمل الرئيسى هو الزراعة ، وكل قبيلة تتكون من عدة فخائذ وبطون ، ولكل قرية عاقل يختاره أهلها ، والشيخ الجامع للقبيلة هو شيخ الضمان وهو المسئول أمام الحكومة عن سوق الأعشار والرهن والتجنيـــد . . .

أما فى المدينة فيشكل الأهلون فئات ثلاثاً : (١) فئات العلماء والمتعلمين (٢) فئات التجار والبيع (٣) فئات العمال وأهل الصناعات كدبغ الجلود وطحن الدقدقة[1] وتقشير البن والنجارة والحدادة وغير ذلك ، ولكل حارة أمين يختاره أهلها وهو المسئول أمام الحكومة عن سلوك الأفراد وزكاة الباطن والخطاط[2] .

---

(١) سبق بيانها .

(٢) الخطاط : نظام عتيق وهو إجبار الأهالى على إنزال الجيش فى بيوتهم .

وكان أهل صعدة قد عرفوا بالتقشف والانطوائية والخوف ، كنتيجة لتعرض مدينتهم لفترات ساد فيها الاضطهاد والعسف ، لا سيا تلك الفترات التى كان لا يوجد فيها حكومة قوية تحدّ من فوضوية التسلط وحكم الطاغوت .

ولا أنسى — بهذا الصدد — أن أحكى قصة رواها القاضى محمد بن أحمد مشحم المتوفى سنة ١٧٨٠ م فى شكل مقامة تعرّض فيها لبعض أحوال صعدة الاجتماعية قديماً ، وكان بطلها زعيم عصابة كسيح استطاع أن يرهب هذه المدينة ويقلب أمنها خوفاً ، وكان يدخل فى يوم السوق محمولاً على محفّة ، ثم يطاف به فى سوق المدينة حانوتاً حانوتاً ليتقاضى الجباية « مبلغ من النقد » .

وحدث مرةً أن تلكأ أحد التجار عن الدفع فاكتفى هذا الكسيح بأن رمقه بنظرة توعدية ، ثم أمر ثلاثة من رجاله بأن يتربصوا للتاجر فى منعطف تعود أن يسلكه فى طريقه إلى داره ويختطفوه ، وقد أثارتَ هذه الحادثة رعباً فى قلوب السكان جعلهم يخضعون لبربرية الكسيح وتسلطه .

وهناك قصة أخرى هى أسطورية أكثر منها حقيقية ، وبالرغم من ذلك فلا تزال متداولة ؛ إنها ولا شك تلقى بعض الضوء على أحوال اليمن فى القرون الوسطى ، وهى أن معذّباً

كان يخرج من قبره ليلاً بسلاسل العذاب وهو يشتعل ناراً ، وكان لا يمس شيئاً إلا أحاله إلى رماد ، الأمر الذى جعل الأهالى يغلقون بيوتهم من الغروب .

وحدث ذات مرة أن شاهد هذا المعذّب إنساناً فى أحد شوارع المدينة ، فأخذ يطارده حتى بلغ إلى داره وكان هذا قد ولج الدار وأغلق على نفسه الباب ، فضرب المعذّب الباب حتى انطبعت يده النارية عليه ، فكان لهذه الأسطورة أثرها فى جعل الناس يلجؤن إلى بيوتهم . ولا تزال الدكاكين حتى الوقت الذى كنت فيه نزيل صعدة تغلق من الغروب ، وهو نفس الوقت الذى تغلق فيه أبواب المدينة أيضاً .

والاعراف فى لواء الشام لها أهميتها المعتبرة كما هى فى بقية أنحاء اليمن إلا أنها تختلف بين قبيلة وأخرى اختلافات سطحية ، ولكنها لا تختلف بالنسبة لتأثيرها على سلوك أفرادها ، وكانت فى الماضى قد تطورت إلى ما يشبه البربرية أو ما يسمى فى اليمن بالطاغوت .

وكان للشريعة أثر فى محوها تدريجياً حتى أصبحت فى بعض الجهات — وبالأخص فى برط والجوف ولواء الشام — لا فرق بينها وبين القوانين الشرعية ،

وقد أقرها المذهب الزيدى ونصّ فى إحدى قواعده بأن : « العُرف معمول به ما لا يصادم نصاً » .

ويُحتكم إلى الإعراف ـ فى الغالب ـ عند عدم وجود حاكم شرعىّ ، أو فيما يخل بنظام القبيلة ، أو آداب السلوك أو حسن العشرة أو الجوار .

والعادات التقليدية عند كل قبائل اليمن لها قواعد وأصول ، ومن تعداها لزمه الإنصياع لشرع القبيلة « أى قانونها » والحكم فى الواقع لا يتعدى ذبح بقرة أو كبش ، وقد يتعدد الغُرم بتعدد الخطأ ، أما من تمرد فما عليه إلا أن يفتح بابه لضيافة القبيلة كلها أو بعضها حتى يقدم العدال « بندق أو خنجر أو مبلغ من المال » كرهن فيما يقرره عليه الحكم القبلى .

ومن حصل عليه ظلم من قبيلة فله أن يؤاخى أخرى « أى يطلب إخاءها ونجدتها » وليس لها أن ترده من ذلك بل عليها أن تنجده وتعمل على رفع ظُلامته .

وتحُلّ الكارثة عند ما تختلف القبيلتان ، فقد يؤدى ذلك إلى حرب ضارية ، ولكن الحكم فى النهاية لشيخ المشايخ إن وُجد أو إلى حفّاظ العُرف ؛ ففى كل جهة يوجد أشخاص لهم إضطلاع وراثى بالعرف القبلى . وهذا العرف ما زال قائماً وهو لا يشكِّل خطراً على الدولة بل العكس فانه يريحها من بعض المعضلات .

هذا فيما يتعلق بعلاقات الأفراد فيما بينهم ، أما فيما يتعلق

بعلاقاتهم مع الحكومة فان المسئول المباشر لديها هم المشايخ والعقال ، وكانوا فى الماضى يقدمون رهائنهم ، فيرهن الشيخ أحد أبنائه ليبقى فى مركز الحكومة ، وكانت قلعة صنعاء وقلاع الألوية الأخرى هى مأوى الرهائن لا فرق بينهم وبين المساجين ، وقد يبقى الرهينة حتى يبلغ الرشد أو حتى يخلفه آخر من القبيلة .

وكانت الحكومة تتولى الانفاق عليهم ، وليست تلك النفقة غير أربعة أقراص من خبز الذرة « الكدم » على أن تستعيده الحكومة من كافة القبيلة بنسبة « ١٠ ٪ » من الزكاة .

وعلى الشيخ أن يتكفل بنفقات إبنه الأخرى وله مقابل ذلك « ٥ ٪ » من حاصلات الأعشار تدفعها الحكومة ، أى إن نسبة ما تدفعه الحكومة للشيخ مقابل إشرافه على الأعشار وعلى نفقات الرهينة يساوى نصف ما تأخذه من الأهالى ، أما النصف الباقى فتحتسبه مقابل الأربعة أقراص .

وكان حساب الرهن يشغل حيزاً واسعا فى سجلات الدولة ، إلا أنه لا بد أن يكون حسابه دقيقاً فى كامل أنحاء اليمن ، ولا بد من أن يكون إيراده ليس كافياً لتغطية حساب الاقراص الأربعـــة فحسب ، وإنما لتغطية قيمة الماء والنور التى يستغرقها الرهينة طيلة العام ، وكذا حصة الرهينة مما تصرفه لسيّدنا الذى يعلمه القرآن والصلاة . هذه واحدة من الترّهات التى كانت تفرضها علينا العهود البالية .

— ١٢ —

وحل موسم الامتحانات ، وأُبلغت من الوزارة بقيامى باختبار المدارس الابتدائية فى اللواء ، وكنت قد رزقت ولداً ، وكان لا بد لى من أن انتظر أسبوعاً ليحـــل وقت ختنه ، ولكنه لا يوجد بصعدة من يجيد عملية الختانة ؛ فقد كانت عادة الأهالى أن لا يختنوا مذاكيرهم إلا بعد سن البلوغ ، وبمعنى أدق قبل الزواج بعام أو عامين ، ولكن الأســتاذ الشيخ دلّنى على أحد الحلاقين كان قد تعلم الختانة على الطريقة الصنعانية وانتهى الأمر بسلام .

وسافرت بادئاً بالمدارس القريبة من « صعدة » كرحبان والعبديين ودماج والمهاذر والصحن ، كنت أمشى إليها على قدمىّ ومعى الأستاذ الشيخ الذى تفضل بمرافقتى إلى جانب السيد المفتش العام للمدارس .

وظللنا خمسة أيام نتنقل فى القرى ؛ نسافر كل يوم من الصباح حتى رابعة النهار ولا يأتى الظهر إلا وقد أنهينا امتحان

الطلاب ثم ننقلب ضيوفاً على كبش سيدنا وهذا الكوعاب[1] من البُر الدماجى أو العبدينى أو المهاذرى[2] فقد تعود المعلمون فى اللواء أن يكون مأمور الإمتحان ضيفهم حتى أن بعضهم ليربى كبش المأمور طيلة العام، ثم لابد من الضيافة النقدية أيضاً .

أما هذا العام فقد ابتكر فقيه « دماج » دعاء سأل الله فيه أن يقيه شر مأمور الامتحان وأن يجعل من بين يديه سداً ومن خلفه سداً فلا يدرك لا قصوراً ولا تقصيراً ، وأن ينزل على أهل القرية خرساً عاجلا فلا يبيحون بشيء مما يرهقهم به يوم الخميس من سمن وبيض ودجاج .

وبث هذا الدعاء إلى من يليه ، وما على أحدهم بعد ذلك إلا أن يكتبه فى رقعة ويدفعها إلىّ بعد ختمها وكأنها رسالة شخصية لاحملها معى للفقيه الآخر ، وهكذا كنت أحمل صحيفة المتلمس بيدى ، على أن الإجابة لم تتيسر بل العكس ، فقد كان هذا العام عام جزاء القصور والتقصير .

---

(١) الأكلة السائدة فى لواء الشام وتصنع من فطير القمح ثم تؤكل على مرق الضأن بأن تملأ به اللقمة بعد فتحها مشكلة كأساً صغيراً . ويسمى هذا عندهم « زنبله » .

(٢) البر : القمح وقمح لواء الشام مشهور بجودته ولاسيما قمح البقلات والمهاذر .

وكانت العادة أن يتقاضى مأمور الامتحان من صندوق المعارف ريالين على الكُتَّاب الواحد وكان مجموع كتاتيب اللواء خمسة عشر كُتَّاباً ، ومعنى هذا أننى سأقوم برحلة تستغرق عشرين يوماً أنتهى فيها إلى مشارف تهامة غرباً وإلى « أبواب الحديد » شمالاً ثم إلى تخوم المشرق شرقاً كل هذا لقاء عشرين ريالا .

وكان لابد لى من أن أقطع هذه المسافة بما فيها من جبال شاهقة وسهول واسعة إما على ظهر دابة بالأجرة وإما مشياً على قدمىّ ، وكلا الأمرين كان صعباً .

ولهذا فقد أشار علىّ الأستاذ الشيخ بأن أشترى حماراً ثم أبيعه فى النهاية دون أن أرزأ منه شيئاً ، وكانت فكرة رائعة ، وبدأت السفر يرافقنى السيد المفتش العام .

وقد صادفت هذه الرحلة هوىً من نفسى طالما تطلعت إليه فقد تمكنت بها من معرفة لواء الشام بكامله تقريباً ، واطلعت على عادات سحار وخولان ورازح وجُماعة والمشرق .

وعرفت هذه الأرض الواسعة التى تختلف كل ناحية فيها عن الأخرى فى الأرض والمناخ والتضاريس ومصادر الزراعة ؛ فسحار بلاد الفواكه والأعناب ، وخولان

---

(١) مركز قضاء خولان ابن عامر وتبعد عن صعدة سبع ساعات على الدواب .

بلاد البن والعسل ، ورازح بلاد الموز والقات وجماعة بلاد المفازات وغريب اللهجات .

وكانت مدينة « ساقين » هى التى بدأت بها ، وهى مدينة تحف بها البساتين الجميلة وكنا فيها ضيوفاً على ناظرة خولان . وتليها « غمر » وهى بلاد ذات جبال شاهقة ووديان خصبة .

وأهم ما يلفت النظر تلك الأنطعة الجلدية التى تغطى بها نساء غمر أعجازهن من فوق الثياب وتمتد إلى أعقابهن ، ونساء غمر فى الغالب بدينات مع مسحة من الجمال يزينه صفاء البشرة ونعومتها .

وقد نزلنا فيها ضيوفاً على ابن حسان الذى حبانا بكرم فياض ، ويسكن قلعة فى قمة جبل شاهق يشرف على غياض البن واشجار الموز .

ولم نجد فقيه الكُتَّاب لأنه كان عروساً فى قرية نائية ، ولهذا قضينا بقية يومنا فى القلعة نمضغ القات وندخن التمباك ، وحضر المعلم فى صباح اليوم الثانى وصار يجمع أبناء القرية إلى تحت شجرة هناك .

واتضح لنا أنه كان طيلة العام مشغولاً بنزاع على عروسته إذ كان هنالك — كما يقول — خصوم كثيرون يطمعون فى مالها وجمالها ، وحاول أن يغطى مناورته إذ صار ينادى

---

(١) شجرة تشبه الشاى تمضغ أوراقها .

الأهلين بالحضور ليصوتوا له بالثقة وعلى أنه خير معلم عرفوه ، ومعنى هذا أنه ترك لهم شأنهم مع أولادهم يزرعون بهم ويبتلون ويغدون إلى الحقول ويروحون ، وقد زوجوه باحدى بناتهم كدليل على رضائهم عنه .

وبالرغم من المأدبة الممتازة التى أعدها لنا فان ذلك لم يدفع عنه الجزاء الذى يستحقه والذى جعله من خيرة المعلمين نجاحاً ومثابرة فيما بعد .

ومضيت فى رحلتى مع رفيقى المفتش العام متجهين نحو جبل « رازح » نصعد تلاً وراء تل وجبلاً فى إثر جبل تتخللها وديان خضراء ومروج غناء .

ولم نتمكن من الركوب لوعورة المسالك بل تركنا دابتينا تسيران أمامنا فى توءدة وكأننا فى نزهة نمتع أبصارنا بمناظر خلابة ومتنوعة ، وكثيراً ما كنا نجد فى طريقنا جدول ماء أو بركة صغيرة فنقف لنتوضأ ونصلى فرضاً أو نركع نافلة .

وكان صديقى المفتش(١) يحتل مكانة محترمة عند عارفيه لما يمتاز به من خصال نبيلة ،فكان إلى جانب نسكه وورعه عالماً أديباً ، وبالرغم من أنه أصبح حينذاك فى عشر الستين من عمره فلا

---

(١) هو السيد يحيى بن على المرتضى .

يزال نشيطاً خفيف الروح بهيّ الطلعة جميل القيافة ، تعلو رأسه عمة مهندمة بيضاء ويتمنطق شالاً أخضراً من الصوف المطرز بالحرير يلفه من تحت إبطه الأيمن ثم يجره على عاتقه الأيسر ثم يرسله على صدره ، أما طرفه الآخر فيضعه على خنجره الزارفي المزدان بقطعتين من الذهب الأصفر الخالص ويكاد يبهر العين لمعان غمده الفضّ المنهدل من تحت حزامه الذهبيّ العريض ، وينتعل حذاءً صارمياً (١) أنيقاً .

وكان ربع القامة نحيفاً أسمر الوجه ذا لحية قصيرة سوداء يتخللها بعض شعرات بيضاء . ولمزاياه الفاضلة إختاره الإمام يحيى وهو في العشرين من عمره كمدرس لأبنائه ثم اصطفاه الأمير أحمد خدناً وجليساً ، فكان رفيقه في حجّة وحرب الزرانيق وصعدة .

وبعد قفول الأمير أحمد من صعدة إختار البقاء بها وجنح إلى قريته المفضلة « بير الشريفة » من رحبان فأذن له في البقاء وعيّنه مفتشاً عاماً على مدارس لواء الشام .

وكان له شغف كبير بالعبادة والتجوال ، ولهذا ربّى له حماراً ناصع البياض ، وكان اهتمامه بتنظيفه ورعايته يفوق الوصف ، وله فيه أشعار كثيرة .

---

(١) نسبة إلى اسكافي في صنعاء يعرف بهذا الاسم .

وكان إلى جانب فضله وورعه عذب المحاضرة حفّاظة للأخبار راوية للقصص والأشعار ، وكان يحرص دائماً على أن لا يتكلم إلا العربية الفصحى ، مع حرص شديد على تقليد الرسول الأعظم « ص » فى صلاته ودعائه ومأكله وملبسه .

وعلى الجملة فقد ترك هذا الصديق فى سويداء قلبى أثراً جعلنى لا أنسى ادّكاره وأنا أعبر جبال الألب الخضراء وأمخر نهر الراين ، وأشاهد آثار الإسلام فى الأندلس ، فقد زرتها بعد ذلك وحيداً فريداً خلواً من مثل هذا الصديق الذى يبادلنى فهماً بفهم وتفكيراً بتفكير .

أعود إلى قصتى مع هذا الرفيق الجليل فى هذه الرحلة التى اعتبرها من أمتع رحلاتى كلها ذلك أنى — وقد طوفت فى أفاق الأرض(١) — أحتفظ لرحلتى هذه ولمثيلاتها من رحلاتى فى طول اليمن وعرضه بميزات كثيرة أهمها أنى أخطر فى أرض بلادى التى لا يوجد لها مثيل فى نظرى ، فهى غنية بمفاتن الدنيا وثروات الأرض لو حظيت بالأيدى الآمينة المصلحة .

---

(١) زار المؤلف معظم أوروبا وأفريقيا والأقطار العربية و الاتحاد السوفيتى والصين كما سيأتى .

وقد جعلتنا روح المعلم المرحة لا نابه بتلك الحشرات المتطايرة.

وقد وصلنا رازح قبل الغروب ، وبالرغم من أن مرحلتنا قد أخذت اليوم بكامله مشينا معظمه على أقدامنا فاننا لم نحس بشيء من النّصب ، وقبل أن نبلغ القلعة عرّج بى مرافقى إلى كوخ صغير قال إنه مسكن المعلم ، واستقبلنا هذا بحفاوة تنم عن خفة روح أو عقل أو هما معاً ، وأدخلنا حجرة هى كل شيء فى البيت ، فى ناحية منها مدت قطعة من البساط الخلق وفى الجانب الآخر مواشٍ مختلطة من نعاج ودَجاج .

وقد جعلتنا روح المعلم المرحة لا نأبه بتلك الحشرات المختلفة المتطايرة من جلود النعاج وريش الدجاج ، وكان يقوم بين أونة وأخرى بحرق قطع من هذا البخور الذى يسمى فى صنعاء بالجاوى ليغطى تلك الرائحة الكريهة المنبعثة من بين أقدام المواشى .

وكان يشير أثناء حديثه عن مشروعه فى بناء بيته وإحياء حديقته إلى زاوية تجمعت فيها آلات تكفى لأن تدك جبلاً ؛ فالعتل طويلها وقصيرها ، والأفؤس صغيرها وكبيرها ، والملاطيس دقيقها وجايلها ، وهنا لك المجارف وآلات الحرث كالحلى والمسِّب والمسْلفة ، كل هذه الأشياء كانت تقوم عليها حياة سيدنا العصامى .

وقضينا وقتاً يلاحقنا النوم ونلاحقه ، ونحن نتقلب بين تلك الهوام الزاحفة من بق ونمل وصراصير ، والمتطايرة من فراش وبراغيث وجداجيد ، وعلى كثب من رغاء النعاج وبقبقة الدجاج وصفير صرّار الليل الذى ظل ينفخ فى مزماره دون انقطاع .

واستيقظنا فى الفجر على صوت سيّدنا الهادر ، وقد أدى صلاته ، وها هو يتلو سورة ياسين ، تارةً يجوِّدها وأخرى يحدرها ، ثم هو لا يمضى قليلاً حتى يتوقف فجأة ليخافت — رافعاً يديه إلى السماء — بدعاء هو أشبه بدعاء معلم دماج .

كان هذا الكروان الناطق يدور كالرتيلاء مقاطعاً تراتيله إما بطرد دجاجه أو زجر نعاجه ، وتارة يجلس القرفصاء ليبعث قلقلته وإدغاماته من تحت أرجل الماعز وهو يحلبها وقد دسّ إحدى رجليها تحت مأبضه ، مقاطعاً تلاوته إما بمحاورتها وإما بتدليعها بصورة تبعث على الضحك والإشفاق معاً .

وكان عامل المنطقة قد علم بقدومنا فبعث إلى سيّدنا رقعة ما إن قرأها حتى صاح قائلاً : « وفديناه بذبح عظيم » فقلت : من تعنى ؟ فقال : « إسماعيل » وعرفت أنه إسم عامل المنطقة ، وكانت الرقعة تعنى الترحيب بنا والدعوة لنا لتناول الغداء فى قصره ، وبالتالى دعوة للكبش

الذى أخرجه سيدنا من الكرْس[1] ودفعه إلى رسول العامل بعد أن همس فى أذنه بكلمات رقيقة تعنى الوداع الأخير .

وقد جرت العادة أن يقوم المعلم بتربية الكبش طول العام وعلى العامل فقط أن يستلمه يوم وصول مأمور الامتحان لقاء المأدبة التى يدعو إليها كل موظفى المركز شريطة أن يحضر كل منهم بغدائه .

وبتنا تلك الأمسية فى قصر العامل الذى ودعنا فى الصباح بحاشيته وعسكره إلى بعض الطريق ، ثم توقف بناليحرق حزمةً صغيرة من أعواد الندّ متفائلاً بعودنا إليه ثانيةً .

وأخذت أنحدر مع رفيقى نحو « النضير » من طريق تنفرج من سفح جبل حرُم الشاهق ، ثم تتفرع منها طرق متعددة تؤدى إلى « صامته » وبنى مروان ، ومنها إلى « جيزان » شمالاً أو إلى « ميدى » جنوباً .

ووصلنا « النضير » وهى مدينة جميلة تتخللها حدائق الموز والمنقا والكاذى ، وتزينها الدور الجميلة المتناثرة هنا وهناك ، ويتوسطها مسجد فسيح بهيج .

---

(١) الكرس فى لهجة اليمن مكان صغير يعلف فيه الكبش ، وهو من تكرس فى الشىء أى دخل فيه منكباً . والكرس ما تجمع وتلبد من التراب وأبوال الأبل والبقر والغنم وأبعارها « المعجم الوسيط » .

وكان المعلم نشيطاً قديراً ، وأدى به نشاطه الى أن يتزوج بأربع نسوة ، فكان فى حالة لا يحسد عليها ، وقد تفضل ورافقنا إلى « شداء » وهو مركز صغير فى سفح جبل الظاهر مما يلى تهامة الشام وفيه نزلنا ضيوفاً على عامله الظريف الشاعر.

وقد رافقنا هذا إلى ضيعة ابن غلفان المتاخمة للسعودية ، حيث تلقانا شيخها ابن غلفان بمزيد من الترحاب ، وهو شخصية مرموقة وقد لمع إسمه من خلال الحوادث التى قامت بين اليمن والسعودية وانتهت باتفاقية الطائف سنة ١٩٣٤ .

ومن ضيعة ابن غلفان أخذنا نستعد لرحلة طويلة وشاقه ، وقد استغرقت منا يومين كاملين ، فقد هبطنا منها سالكين وادى بدر ثم انتهينا فى المساء إلى قرية « معبار » ، وكانت هذه القرية البائسة قد أخذت حظاً كبيراً من زلازل سنة ١٩٣٥ ، فكانت بيوتها مجرد أطلال .

ونزلنا فى دار لم يبق منها قائماً غير نصفه ، ولذا لم نتمكن من الوصول إلى حجرة فى الدور الثانى إلا بواسطة خشبتين ، ولا أستطيع أن أصف هنا حالة السكان البائسة وفقرهم المدقع وبالأخص أهل هذا البيت .

وفى زاوية الحجرة كان يجلس شيخ أصم أبكم قيل أنه أصيب فى حادث الزلازل ، وكانت حيطان الحجرة وأركانها مشققة وأرضيتها تهتز بأدنى حركة .

ليت شعرى متى ستهبط انسانية أهل الأرض من عليائها

ومن المصادفة أنى أكتب هذا فى اليوم الذى هبطت فيه مركبة أبو اللو « ١١ » برجالها الثلاثة على سطح القمر وهو يوم ١٩٦٩/٧/٢٠ ، وإنى لاتساءل عما إذا كان أهل هذه القرية المنكوبة لا يزالون ينتظرون وقوع السقوف على رؤسهم فى الوقت الذى امتدت فيه يد التطور البشرى إلى أقمار السماء ، أم أنها قد وقعت عليهم دون أن يعرف ذلك إنسان القرن العشرين ؟ ! ! .

والغريب أن أهل هذه الدار — ولا شك أن غيرهم مثلهم — يعيشون على هذه الحال المزعجة وعلى صوت تصدع رهيب لمدة عشر سنوات وقالوا لنا إن الدار لا تنفك تتهاوى من أطرافها فى كل حين ، وقد حدث ذات يوم أن هوى جانب ضخم منها على رأس الابن الأكبر لصاحب الدار فتركه لحماً على وضم ..

وأعظم ما يدعو إلى الإشفاق بل إلى الرثاء والحزن منظر الأم العجوز الناحلة الجسم والذى لا يستره سوى قطعة من النطع الممزق ، وعند ما مددت إليها بقطعة خبز كانت فى حقيبتى لم تملك أن شكرتنى بدموعها الحزينة . ليت شعرى متى ستهبط إنسانية أهل الأرض من عليائها لتغشى تلك الأكباد الحراء والأجسام الناحلة التى أنهكها المرض وأمضها الجوع ؟ ؟ ! !

- ١٣ -

غادرنا قرية «معبار» فى الصباح صاعدين جبل العيناء المنيع ، وبعد أن بلغنا قمته التفتنا بقلوب مهيضة لنلقى النظرة الأخيرة على قرية معبار المحطمة وكأنها أعجاز نخل خاوية ، ثم أخذنا نغذ السير نحو باقم فى مفازات تتخللها أودية قاحلة تسطع صخورها بامعان الزمهرير .

ووصلنا باقم فى المساء ، وقابلنا رجال من أصدقاء المعلم وأهم ما لفت نظرى لهجتهم الغريبة ، التى اضطر المعلم حينذاك لأن يقوم بدور المترجم ، والكشكشة عنـدهم ليست تلك التى عرفها اللغويون فى لهجـة ربيعة وبنى أسد ، فهم لا يبدلون الكاف شيئاً بل يحولونها إلى جيم معطشة فيقولون أهلا بچ «أهلا بك» وأنا خوچه «أنا أخوك» .

وقد زرت فى اليوم الثانى منطقة أبواب الحديد ، وهى عبارة عن تلال يقع فى جنوبها جبل «شيحاط» حيث

فاقترح علماء صعدة اجتماع الامامين للنقاش العلمي

دارت المعركة الرهيبة بين الجيش اليمني والجيش السعودي سنة ١٩٣٣ إثر النزاع على « نجران » .

ويوجد في « باقم » ضريح الإمام القاسمي وكان قد نازع الإمام يحيي الإمامة سنة ١٩٠٤ وناصره علماء صعدة وأعيان قبائلها ، وكاد الحرب أن يقوم بينه وبين الإمام يحيي الذى كان حينذاك لا يزال بالأهنوم ، فاقترح علماء صعدة اجتماع الإمامين للنقاش العلمي وأيهما الأعلم بويع إماماً .

وجاء الإمام يحيي إلى صعدة واستقر بالسنّارة ، وأعد جامع الإمام الهادى مكاناً للنقاش ، ولكنه حصل الاختلاف في بعض مسائل تتعلق بالمحكّمين

ومرت أيام ولم يصل الطرفان إلى حلٍّ مرضٍ ، بل على العكس فقد تطور الخلاف وأوشك أن يفضى إلى حرب ، ولكن أحد أنصار الإمام يحيي — وكان من أهل النفوذ في لواء الشام — تمكن بعدة طرق دبلوماسية من حمل القاسمي على ترك الأمر ومغادرة « صعدة » إلى « أم ليلى » . ثم استقر أخيراً في قرية « قراض » جنوبي باقم حتى مات ودفن بمسجد باقم .

وقيل لى إن ابنه الأكبر يعتبر من أبرز العلماء ، فرأيت وجوب زيارته ، فسافرت إلى « قُراض » ووجدته في المسجد — إذ كان لايبارحه إلانادراً — وحوله أولاده وإخوته

يتعبدون ويتدارسون العلم ، وحال دخولى المسجد كان قائماً يصلى فى المحراب فأديت تحية المسجد وانتظرته حتى فرغ من صلاته ثم التفت نحوى بوجه عريض ولحية طويلة وعلى بدنه قميص مرقع .

وبعد أن حيانى زأمر إبنه باحضار القهوة أحب أن يعجم عودى فى الوقت الذى كان يداعب طفلة صغيرة له ويحملها على كتفه ، فسألنى قائلاً : « ما تحفظون حول دخول الأطفال المسجد ؟ » .

فقلت : أحفظ قوله « صلى الله عليه وآله وسلم » جنبوا المساجد صبيانكم ومجانينكم » .

قال : لكنه قد روى أنه « صلى الله عليه وآله وسلم » كان يصلى وهو حامل أمامة بنت زينب وهو متفق عليه .

قلت : ربما كان ذلك فى بيته لا فى المسجد .

قال : جاء فى زيادة لمسلم : « وهو يؤم الناس فى المسجد » .

قلت : ربما كان منسوخاً بالنهى !

قال : قد قيل ذلك ولكنه قول لا يستند إلى برهان واضح .

قلت : أو ربما كان خاصاً به « صلى الله عليه وآله وسلم » .

قال : الأصل عدم المخصص .

هل الاسكار علة فى حد الشارب ؟

قلت : ما رأيكم فى تعليل الحكم ؟

قال : أنا أوافق المعتزلة فى ذلك .

قلت : إذن ، لنا أن نبرر دخول الصبيان إلى المسجد بانتقاء العله وهى إيذاء المصلين .

قال : ذلك جائز .

ورأيت أنه قد جاء دورى لأن أعجم عوده ، فقلت : « إذاً الإسكار علّة ، ومن ثم لقائل أن يقول إنه شرط فى حد الشـــارب » .

فقال : لا . . لا . . لنا أن نعلل الحكم إن أمكن تعيين العله فيما لم ينعقد عليه الإجماع ، أما فيما انعقد عليه إجماع كمعاقبة تارك الصلاة لأنه تركها ، وإقامة الحد على الشارب لأنه شرب المسكر ـ سواءً كان قليلاً أو كثيراً ـ فلا تعليل ، ولعلك قد عرفت ما هى طرق العلة فاذا لم تعرفها فعليك أن تعرفها أولاً » .

ولم أحر جواباً بل استسلمت للهزيمة ، ولما استأذنته فى الانصراف عاد ولاطفنى قائلاً : « أنتم لدينا اليوم » ، فقبّلت يده معتذراً وانصرفت . نعم قبّلت يده لأن الإسلام علمنا هذا مع علمائنا ، ولا غرو فقد فعل هذا قبلى أحد أبناء الرسول مع أحد علماء الصحابة .

ليس من الرجعية أن نتخلى عن تراثنا

وقد تذكرت تقبيلي ليد هذا العالم بعد ربع قرن وأنا أغادر الطائرة في مطار شنغهاي ، وكان بعض المستقبلين يحاول أن يأكل يدي لأنها لامست يد الرفيق ماو . وللعلماء في مصر وسوريا والعراق قداسة عظيمة ولقد رأيت بعضهم يسعى على ركبتيه ليقبل يد العالم .

وفي اعتقادي أنه ليس من الرجعية في شيء أن نحترم علماءنا وأهل الفضل فينا وأعني بالعلماء العاملين والفضلاء المتقين لا كل من حمل العمامة وأرسل الأكمام وجاءنا بمسوح الرهبان وهو بعيد عن العلم والفضل بعد الأرض من السماء .

أقول ليس من الرجعية أن نتخلى عن تراثنا بل الرجعية أن نعود بأنفسنا إلى عهود الجاهلية الجهلاء ونترك تعاليم القرآن الذي هو المصدر العالمي الوحيد لهداية البشرية ورقيها الفكري والاجتماعي ، لننجرف وراء سفسطات عقيمة مربكة ابتدعها الملحدون ووسعها الجهلة المقلدون فسموها المادية الجدلية والفلسفة المثالية والمعرفة الماركسية والسفسطة الميكافيلية وغير ذلك مما إخترعه المتحذلقون لمجرد إحداث ضجة حول الذات الإلهية مغزاها التعطيل والإلحاد وتحويل الإنسان المفكر إلى دبٍّ مقلد .

لقد حاول هيجل بفلسفته عن الوجود بما سماه « المطلق»

أو « الحقائق الكلية » أن يعمق الرجعية الألمانية وجاء تلميذه كارل ماركس بنظرية المعرفه ليحوِّل قوانين الوجود إلى قوانين للمعرفة فوقع فى خطأ وهو عدم التفريق بين الإنسان وبين الظواهر الطبيعية ، ومعنى هذا وضعه فى مستوى الجمادات ونفى حريته الإرادية ، ومن ثم عرف لينين العقل البشرى بأنه أرقى نتاج للمادة ، وهذا لم يكن جديداً فداروِن قد زعم هذا من قبله ضمن ما جاء به من سفسطة عقيمة .

وأخيراً قالوا إن « الطبيعة كل واحد وأن وحدة العالم قائمة على ماديته » ولقدسألت أحد الفلاسفة الكبار إبَّان زيارتى لبعض الأقطار الصديقةعن رأيه فى « بدء المادة » ، وفوجئت به لا يعرف المادة من حيث هى فقد قال لى بالحرف الواحد : يقول « ستالين » فى كتابه المادية الجدلية والتاريخية أن التساؤل عن المادة مجرد عبث » ، إذاً هو مادى ولكنه لا يعرف ما هى المادة ! ! .

ولقد جاء إلىَّ أحد أولئك الذى يسمون أنفسهم دعاة الفكر فى بلادنا ليناقشنى عن المادة فأعدت عليه نفس السؤال فلم يحر جواباً ، وذكَّرنى هذا بقصة جماعة المُجبرة مع الهادى يحيى بن الحسين فقد سألوه عن رأيه فى المعاصى هل الإنسان مخير فيها أم مسير ، فأجاب عليهم بقوله : « ومن العاصى ؟ » فتحيروا فى الجواب فان قالوا هو الله فهذا لم يقل به حتى

الملاحدة وإن قالوا هو الإنسان خرجوا من مذهبهم الجبرى .

وسألت بروفسوراً كان يرافقنى أثناء زيارتى لمتحف لينين فى موسكو عما إذا كان « لينين » يعرف اللغة العربية فقال : لا ولكنه كان يجيد عدة لغات وأنه كان ملماً بالإنجيل ، فقلت له أى الأناجيل تعنى إنجيل متا أو لوقا أو مرقس أو يوحنا فهى كثيرة وكلها قد حرفت آياتها وغيرت مضامينها حتى أنها لا تتفق على قصة صلب المسيح التى يزعمونها الأمر الذى أضعف ثقة الفلاسفة والباحثين فيها مما جعلهم يتخبطون فى ظلام دامس ، ولكن الرفيق لم يجب بشيء .

وخرجت وأنا أقول فى نفسى لو عرف هؤلاء القرآن لما وقعوا فى هذه الغمرات من الحيرة والتخبط ، فهو المصدر الوحيد لهداية البشر ، ولكن فهم آياته وإدراك معجزاته يتوقفان على فهم لغته ، ومن ثم فعلى الأمة العربية أن تهتم قبل كل شيء باحياء لغتها ونشرها للعالم كوسيلة لاطلاعه على فكرة الإسلام الغضة وفلسفته الرفيعة والكفيلة بانقاذ البشر أجمعين .

* * *

وغادرت باقم متجهاً إلى « مجز » ، وعرفت فى طريقى أن بجُماعه[1]

---

(١) قضاء واسع شمالى « صعدة » .

وذكرني هذا باسطورة هيراكليس

قرى كثيرة يقطنها علماء مجتهدون كهجرة « فلله » و « رغافه » و « قطابر » و « ضحيان » وقد زرت الأخيرة ومكثت بها يومين وهي مدينة زاخرة بالعلماء من آل الضحياني وآل الصعدى وآل الغالبي وكانت فيما مضى تسمى « كرسي الزيديه » .

وسمعت وأنا أعبر مفازة الشطبة أن من عادات أهلها وشدة تقديسهم للعلماء أنهم يتنافسون في المزارات حتى إن بعضهم ليقتل العالم إذا وفد إليه ليجعل من جدثه مزاراً ، ولا شك أن هذه العادة — إن صحت — فقد أصبحت منقرضة ، وذكرني هذا بأسطورة هيراكليس وقد وُضعت الأكاليل على رأسه في عهد المصريين القداماء تمهيداً للتضحية به لزيوس ، فلم يملك لا أن قتلهم جميعاً كما روى ذلك المؤرخ « هيرودوت » .

وعدت إلى صعدة في ٢٤ يونيو سنة ١٩٤٩ لأستأنف دراستي وعملي ، ولم ألبث غير بضعة أيام حتى فوجئت بمرض إبني ، ولا مسعف ولا معالج ، فصعدة لا يوجد بها طبيب ولا علاج غير تلك الوصفات العادية والمساحيق التي قد تُودي بالمريض ، وانتهى الأمر بموت الطفل وهو يتضور بين أيدينا .

وهكذا كان الناس يموتون في صعدة دون أن تعرف

عللهم ، وأذكر أن إمرأة بجوارنا أصيبت بالتهاب فى حنجرتها — يقولون له « السَّدد » ولا علاج له عندهم إلا الانتظار للموت — فماتت بعد أن ظلت أسبوعاً لا تستطيع أن تأكل شيئاً ، وكثيراً ما كان ينتشر مرض التيفوه فيجتثّ عائلات بأسرها .

ولأهل صعده عاداتهم الخاصة فى تشييع موتاهم ، إذ يخرج المشيعون فى زمرة مكتنزة كقطعة اللحم تدور حول النعش فى تسابق لحمله بينما يطلقون صوتاً غريباً كئيباً من التهليل الجماعى ، وبعكس هذا فى مناسبات الأفراح فانهم يتراصون فى صفوف طويلة يتقدمهم عالم البياض ينشدون ويرقصون وقد سربلوا أكمامهم الطويلة ، بينما يقوم آخرون باطلاق بنادق البارود الذى يصنع محلياً ويستخدم فى أغراض ولَّدها الجهل والضغينة كهدم البيوت وتقويض الحصون .

* * *

وقمت بانجاز مهماتى الوظيفية التى كانت قد أهملت فى غيابى ، وانتحيت فى دراستى منحىً آخراً وهو الخلو إلى كتبى والتفرغ لمراجعتها وتأملها ، وفى هذا كنت أقضى الأيام والأسابيع .

وكان الأستاذ الشيخ يساعدنى على قرض الشعر وصياغة

الأحاجى الأمر الذى مكننى من اجتياز المرحلة الأولى وهى مرحلة إتقان العروض والقوافى ، وقمت بعد ذلك بنظم عدة قصائد إحداها كانت فى رثاء السيد المؤرخ محمد بن محمد زبارة وكانت جيدة وقد أخبرنى إبنه العالم الكبير أحمد بأنها لا تزال ضمن أوراق والده .

وكنت أستطيع التقدم فى هذا المضمار ، لولا أن ميولى كانت تتجه إلى العمل أكثر منه إلى القول ،وكان الشعر التقليدى السائد حينذاك هو مديح الحاكمين فلم تستمرئه نفسى ، ولم نقرأ حينذاك شعراً هادفاً إلا القليل من نتاج أولئك النابغين الذين سبق لهم أن غاصوا فى المديح إلى آذانهم .

أما الشعر الغنائى المبتكر فكان لا يقل وجوده عن وجود آلات العزف ووسائل الإيقاع ، ما عدا الدف والطبل ومزمار البراع ، أما الكمان والبيانو وآلات الطرب الأخرى فكانت حينذاك محرّمة فى اليمن على الإطلاق .

وكان لايوجد من آلات الموسيقى غير آلات الجيش العتيقة من مخلفات الأتراك . واليمن حتى اليوم لا يعرف الأرغُن والبيانو إذ لا يوجد أركسترا ، وتقوم الكمنجة والقيثارة والسارون الصغير فى عزف الشعر الغنائى الذى بدأ ينمو منذ قيام الثورة .

وبعد عودتى الى صعدة رحلت عنها نهائيا

وقبل حلول وقت الامتحان السنوى كلفتنى الوزارة ثانية بالسفر لامتحان مدارس اللواء فاستأنفت الرحيل بادئاً بضحيان ومنتهياً بساقين أى على عكس رحلتى فى العام الماضى ، وبعد عودتى إلى صعدة رحلت عنها نهائياً إذ كنت قد سئمت الإقامة بها وعفت السكنى فيها .

* * *

— ١٤ —

بعد أن قضيت بصعدة خمس سنوات قررت العودة إلى صنعاء ومعى أهلى وقد غادرتها فى ١٣ فبراير سنة ١٩٥٠ وكانت رحلتى هذه مليئة بالمفاجئات فى إمكانى أن أذكر هنا حادثتين منها .

فأولاهما كانت فى قرية الصفراء حيث بتنا الليلة الأولى فقد رأينا أن نسلك مفازة العمشية أو بعضها ليلا ، فنهضنا فى وقت متأخر من الليل وأخذنا نحزم متاعنا على ظهور الدواب .

ولما بدأنا نسير إذا بنا نفتقد حمارنا الثالث وعليه متاع حماتى ، وكان الظلام دامساً ، فأخذ المكارى يبحث عنه فى كل صوب ، ثم قرر فى النهاية أن نواصل سيرنا لأنه أصبح يظن بعد بحثه الطويل فى أن الحمار قد سبقنا فى الطريق .

وظللنا نسير حتى الصباح ونحن نصطلى بحُمىَّ حماتى ، وصاح

المكارى فى سرور عند ما شاهد آثار حماره ، وما هى إلا لحظات حتى رأينا الحمار يسير فى رتابة واطمئنان .

أما ثانيهما – وهى مفاجأة حمارية أيضا – فبعد مغادرتنا لحيوان فى اليوم الثالث ، كان المكارى قد تأخر فيها لبعض حاجته على أساس أن يتبعنا إلى « خمر » وصادف أن الحمار الذى كان يسير فى المقدمة وعلى ظهره حماتى ينتمى إلى قرية فى تخوم جبال خارف تدعى « المرازيق » وبدلاً من أن يسلك طريق خمر إذا به يتجه إلى اليسار فى طريقه نحو مسقط رأسه .

وبالرغم من أنى قد سلكت هذه الطريق أكثر من أربع مرات فلم أفطن للمزق الذى أدخلنا فيه الحمار ، وهكذا صار يتسلق بنا جبلاً فى إثر جبل ، وكانت حماتى إلى جانب كبر سنها لا تحسن تثبيت نفسها على ظهره ، مما اضطرنى إلى أن أسير بجانبها ماسكاً لها طيلة يومى ، ولما كان معظم الطريق ضيقاً لا يتسع إلا لمرور شخص واحد فقد تعرضت ساقاى لعدة صدمات جارحة .

ووصلنا قرية « المرازيق » فى المساء ، وبتنا فيها على أسوأ حال ، فقد أدخلنا فى بيت حائك لم تترك لنا براغيثه فرصة نكتحل فيها بنوم .

وسافرنا فى الصباح حتى نصف النهار حيث انتهينا فى

قمة حيدٍ ينتهى سفحه بقاع البون مما يلى ريدة ، وهنا واجهتنا المعضلة الحقيقية ؛ فحماتى قد أعياها السير ، وليس فى مقدورها التقدم فى هبوط العقبة الكأداء بوصةً واحدة ، فهى بمجرد أن تهوى ببصرها إلى أحياد الجبل يغشاها الدوار ، كما أنه ليس فى إمكانى حملها إذ كانت بدينة .

وجلست مع زوجتى نفكر فى حل لهذه المعضلة بعد أن أدركت بالتجربة صحة المثل المصرى : « الحماة حُمَّى » وكان الحل الوحيد هو أن تمسك زوجتى بيد وأمسك أنا باليد الأخرى بعد أن نضع عصابة على عينيها ، ومن حسن الحظ أن هذا الرأى قد صادف قبولا منها . وأخذنا نسير فى بطء ، وانتهت بنا سلحفاتيتنا فى صحن الوداى بعد ثلاث ساعات ونصف ، واشهد أننا كنا جميعاً فى حالة من الإعياء تستحق الرثاء[1] .

وبتنا ليلتئذ فى « ريدة » . وكنا قد اجتزنا مشكلة تسلق الجبال لولا أن حماتى قد سقطت فجأة إلى الأرض إثر مغادرتنا « ريدة » وأسفر الحادث عن رضَّة فى كتفها وجرح فى ساقها ، الأمر الذى اضطرنى إلى السير بجانبها ثانيةً حتى

---

(١) كان هذا قبل ربع قرن تقريباً عندما كانت الطرق فى اليمن على الطبيعة ، أما اليوم فإن السيارات قد حلت الكثير من مشاكل الناس .

بلغنا صنعاء بعد يومين . أليس هذا يا قرائى مما يستحق الذكر ؟ ! . . . وهل فيكم من وفق فى بره بحماته مثلى ؟ ! . . .

وأبرقت للإمام أحمد من صنعاء ليأذن لى بالوصول إليه ، وجاء الرد فى خلال ساعات وفيه الأمر إلى الطيران بنقلى إلى تعز ، وصادف أن صديقى المفتش كان قد استدعى هو الآخر مع أحد كبار علماء صعدة ، واتفقنا بالصدفة بمطار صنعاء .

وسافرنا معاً إلى تعز حيث أنزلنا بدار الضيافة ، وكانت حينذاك غاصة بشخصيات كبيرة ، وخصصت لنا حجرة عرفت بعد ذلك بحجرة الصعايدة .

وتعرفت فى هذه الدار على شخصية علمية مهذبة[1] لها مكانه مرموقة عند الناس والإمام ، وتوثقت بيننا علاقات أخوية لم تنفصم عراها وإلى ما بعد خمسة عشر عاماً .

كان الإمام حينذاك يجلس للناس بقصره « دار الناصر » بمدينة تعز ، وقد هرعت مع رفيقى بعد أن أدينا المغرب يوم وصولنا ، وهناك كتبنا أسماءنا فى رقعة دفعناها للحاجب

---

(١) هو القاضى الناسك حسين بن أحمد الجندارى .

ثم أوينا إلى مسجد القصر حيث أدينا العشاء ، وما هي إلا برهة حتى عاد الحاجب يدعونا لمقابلة الإمام .

وصعدنا عدة درجات انتهينا بعدها إلى بهو رحب ولجنا منه ديواناً يبلغ طوله ٢٥ متراً تقريباً ، وبهرني بأضوائه الزاهية وأثاثه الفخم وصمته المهيب ، وقد جلس الإمام في صدره ، كما اصطف على جانبيه رجال حاشيته ومعظمهم من العلماء .

وما إن ولجنا الباب حتى صار يرمقنا بنظرات حادّة من عينين واسعتين تعلوهما جبهة عريضة ورأس ضخم تغطيه قلنسوة أنيقة من الحرير ، وتحت فمه العريض لحية كثة سوداء جعلتني أظنه لا يجاوز الأربعين ، في حين إنه كان في الخمسينات من عمره ، ولكن البياض الذى كان يلوح للمتأمل من جذور الشعر يجعله يؤمن بأن ذلك مجرد صباغ خاص وضع للتغرير أو للإرهاب أو لهما معاً .

وتقـــدم ثلاثتنا واحداً إثر واحد لأداء التحية ، ولا أكتمكم أنها كانت تقبيل يد الإمام وركبتيه ، هذه تحية الإمام التقليدية التي كان يؤديها كل الناس على الإطلاق ، والكل كانوا يعتبرونه واجباً محتماً ، وليت الأمر كان يقف عند هذا الحد فحسب ، فلقد شاهدت لحىً بيضاء لجهابذة

كبار تهوى إلى الأرض لتقبل باطن أقدام الإمام الأمر الذى كان يثير إشمئزازى .

وجلسنا فى ناحية من الديوان حيث وجه إلى كل منا بعض الأسئلة ثم انصرف إلى ما يقدمه له حاجبه من الرقع ليوقع عليها ثم يترك الحاضرين فى نقاشهم حول ما يثيره بينهم بين آونة وأخرى من مسائل علمية ، ثم يلتفت فجأة ليدلى بآرائه حول الموضوع بحصافة وعمق .

وقدر لى أن أحضر تلك المناقشات التى كانت تقام ، والتى كانت أشبه بندوات علمية ، فكانت تبحث فيها أدق مسائل الفقه المعقدة كالقصاص والوصايا والطلاق ليُستنبط منها إجتهادات تلائم الظروف ، كما كانت تطرح فيها أهم مسائل أصول الدين كالإرادة والقضاء والقدر وأمثال ذلك من المسائل التى يتجلى فيها الفكر اليمنى المتحرر من قيود التشبيه والجبر ووحدة الوجود .

وكان الإمام أحمد يتحلى بصفات طيبة وأخرى ضدها شأنه شأن كل البشر ، فكان يقظاً حازماً فيما يتعلق بمهام الأمور لا سيما تلك التى تتعلق بأمن البلد وسيادته ، أما كرمه وشجاعته فلم يترك شعراء اليمن فى ذلك قولا لقائل ، ومن

فاته ذلك فليبحث عنه فى شعر الزبيرى والإريانى والشامحى .

وأعظم ما يقال عن مثالبه أنه كان فى إمكانه أن يصنع لليمن كل شىء ولكنه لم يصنع لها شيئاً فى مجال البناء والتقدم والعمران[1] ، ولست مبالغاً إذا قلت أنه كان بالنسبة للثقافة العصرية قاصراً ؛ ولقد سألنى ذات يوم عن معنى الديموقراطية والبرلمان ولم أكن حينذاك بأعلم منه فى هـذا الصدد .

ألا ليت أولئك الذى يقرؤون كتابى أن لا يحملهم كلامى هذا على غمط ما يعرفون وإنكار ما يجهلون ، أما أدعياء المعرفة ومرتزقة التضليل فما عليهم إلا أن يخرسوا .

وإن تلك المقالات السوداء والمنشورات التى يبثونها ضدى والتى يقصد من ورائها هدم التاريخ اليمنى لن تزيدنى إلا عزماً وتصميماً على إداء رسالتى على الوجه الذى أكون فيه بمأمن من سخط التاريخ ولعنات الأجيال . على أننى لا أدعى الكمال فيما أقول ولا العصمة فيما أكتب ، وإذا

(١) سيتضح أسباب ذلك من الفصول الآتية .

كنت قد أخطأت فى أقوالى أو خلطت فى آرائى دون علم منى فإن ذلك دليل عجزى كانسان ونقصى كواحد من البشر ، وسيأتى اليوم الذى تكون فيه الحقيقة فوق كل إعتبار إما فى مستقبل الأحقاب أو فى عرصات الحساب .

* * *

وكانت تعز ملأى بالوافدين من كافة طبقات الشعب الذين يتوافدون إلى قصر الإمام صباح كل يوم ، وكان ديوان الإمام « الديوان الملكى » ملاذ تلك الجحافل فهو الذى يتلقى عرائض الناس ، ولكن ليس له أن يبتّ فى شيء فما عليه إلا الفحص والتلخيص وتحرير ما يأمر به الإمام بتوقيع الإمام .

ولم يكن الديوان هو المصدر الوحيد الذى يقدم أوراقه اليومية الى القصر فهنالك المالية والمواصلات والهيئة الشرعية وأفراد العكفة « الحرس الملكى » وموظفوا القصر الذين ينثون لتصيد الأوراق من أيدى أهل الحاجات مقابل جعول تختلف وتتفاوت بتفاوت القضايا وأهميتها .

كل هذه الأوراق كانت تقدم الى الإمام يومياً في رزم ضخمة ، وكان الإمام يتصفحها ويجيب على كل رقعة بما يرتئيه في كل يوم أو في اليوم الثاني أو في كل أسبوع ، وأحياناً لا يلتفت إليها إلاّ بعد شهر أو شهرين حتى تكوّن ركاماً هائلاً من الرزم .

وفى خلال هذه المدة تظل الدوائر الحكومية مشلولة الحركة تماماً بينما تظل الجماهير فى غدوّ ورواح ومجىء وذهاب دون طائل ، أما المخابرات المستعجلة والشيفره فكان الإمام يوليها إهتماماً كبيراً .

وكان موظفو الديوان من أكفء رجال الدولة وأكثرهم حنكة ، ولكنهم كانوا يختلفون فى ميولاتهم ونزعاتهم ، بينما كان بعضهم –وقل إن شئت معظمهم– مطايا للأطماع والرشوة يتقاضونها بصورة خفية .

وقد حدث ذات يوم أن وفد على الإمام مجموعة من مشايخ وصاب متضررين من عسف الموظفين والفوضى الإدارية ، فأراد الإمام أن يعجم عودى فأمر بسفرى للقيام بالكشف هناك .

وأقلتنى سيارة الى زبيد ومنها الى الركب ، ثم سافرت الى « الأحد » ، وكنت قد أُمرت بالاستقرار فى هذا المركز لتوسطه بين الناحيتين ، وبعث الىَّ الإمام بثلاثين جندياً بقيادة شيخ كبير لأستعين بهم فى ضبط الأمور .

وكان مبنى المركز واسعاً جداً ومندثراً ويتكون من أربعة أدوار تكتنفه أكثر من خمس عشرة حجرة ، ويحيط به عدة مخازن وأنبارات وشون للحبوب ومسجد صغير ، ويقع على رأس مرتفع ومن تحته قرية الأحد المليئة بالأوبئة والحشرات وبالأخص البعوض .

وقد ظل هذا المبنى مهجوراً أكثر من عشرة أعوام حتى أصبح وكراً للهوام والعوالم الخفية المزعجة .

وقد أخذت فى ترميمه وتنظيفه ، ومكثت فيه عاماً كاملاً ، كانت حجرتى فى الدور الثالث بينما تفرق الجنود فى أماكن متفرقة من فنـــائه ، وكانت الأفاعى على إتصال دائم بنا فهى لا تقطع زيارتنا البته ، وكنا نتوجَّس منها خيفة بادئ الأمر خشية أن تكون من سكان الدار الخفيين حسبما كان شائعاً ، ولكنا اضطررنا أخيراً لمطاردتها

وقتلها ، وكان كلما قتل منها لا يتحول إلى نعل قديم[1] وكان بعضها ضخماً بحيث لا يؤثر فيه العصىّ والهراوات فكنا نستعمل بارود بنادق الماوزر لإحراقها .

وذات يوم كنت قد غادرت حجرتى الى بيت الماء ، وعند ما عدت شاهدت الحارس يشير الىّ بيده ورأسه وقد امتقع لونه بأن شيئاً مّا قد هبط من أعـــلا وولج فى حجرتى ، فجئت لأرى كومة كبيرة سوداء من جسم ثعبان هائل يملأ فراغ ما تحت منضدة صغيرة كانت تقع أمام مجلسى ، وناولنى الحارس بيده المتجمدة بندقه الماوزر بعد أن أبعد رصاصة القذيفة ، ثم أطلقتها عليه من بعد ، فلم تنله الا ببعض حروق فى أسفل جلده فخرج هائجاً ناشر الرأس متجهاً نحوى فلم ينقذنى الا لهذم جنبيتى[2] ، اذ كانت أقرب

---

(١) كان يعتقد بعضهم أن الجنى يتشكل بشكل ثعبان أو قط أسود فإذا ضربه الإنسان بسلاح أو رماه برصاصة فاصابته فإنه يتحول إلى نعل قديم أى بال .

(٢) الجنبية الخنجر وسميت جنبية لأنها توضع فى جانب من البطن مشدودة بالحزام .

وأصيب ذلك الحارس بلوثة فى عقله فقد اعتقد أن الجن يلاحقونه

شىء الى متناول يدى ، فكنت قد تعودت أن لا أخلعها الا عند نومى بعد حادثة جرت أمامى ، ذلك أن شخصين تشاجرا مرةً ونحن جلوس فى حفلة مقيل ، فوثب أحدهما بجنبيته على آخر كان قد علق حزامه فى وتد عال فأصابه بعدة طعنات ولكنها غير قاتلة ، فكان درساً كافياً بالنسبة لى .

وأصيب ذلك الحارس بلوثة فى عقله فقد اعتقد أن الجن يلاحقونه وأنهم قذفوه بالحجارة عندما كان هابطاً فى سلم السطح مساء ، وجاء ليرينا ظهره ، وما كنت فى حاجة الى ذلك فقد سمعت أبواب الأماكن تصطك والحيطان تقذف بالحجارة .

وجاء شيخ « الأحـد » يحذرنى من البقاء فى هذه الدار المهجورة وقص لى أخباراً جرت لمن قبلى ، وعرض علىّ داراً بديعة فى القرية ، ورأيت أنّ من الجبن أن أغادر مبنى الحكومة من أجل خرافات لم يهضمها عقلى ، ولكننى لمست بعد ذلك أشياء حملتنى على مزيد من التأملات ، إننى لا أريد بهذا إخراقكم أو حملكم على التصديق وإنما هو جزء من فصول حياتى التى أنا بصدد عرضها .

* * *

ما إن انتشر نبأ وصولى حتى هرع الناس من كل صوب ؛ فهذا يبث ظلامته من العامل وذاك من الحاكم وذلك من موظفى الخزانة ، وآخرون يصرخون من أولئك الثعابين الذين ينتشرون فى القرى هذا قباض « متحصل » وهذا طائفى « حازر » .

وجاء الموظفون من وصاب العالى و السافل ، وبدأت عملى فى مجال التحقيقات وكشف الحسابات ، وتمكنت خلال عام ترددت خلاله بين الدن[1] والأحد[2] من رفع مظالم كثيرة وإبعاد الظلمة والمرتشين وتحصيل حقوق الدولة التى دخلت فى جيوب المتحصلين .

وتعرفت فى « الأحد » على عالم كبير من علماء السنة[3] ، فانتهزت الفرصة لقراءة مقدمة البخارى وبعضاً من سنن الترمذى عليه ، كما قرأت عليه مختصر المزنى ورقائق ابن المبارك فى فقه الشافعية ، وكان محققاً فى كل الفنون وقد وجدت فيه رفيقاً وأستاذاً ، وظل يزورنى ويلازمنى طيلة إقامتى بالأحد .

---

(١) الدن هو مركز وصاب العالى ويقع فى قلب المرأة على قمة جبل شاهق لايبرح مغطى بالضباب يبعد عن زبيد مسافة يومين ونصف .

(٢) قلعة فى وصاب السافل مسافة يوم من زبيد شرقاً .

(٣) هو الشيخ محمود العريف .

وكان يقوم بأعمال وصاب العالي موظف كبير يسمي نفسه نائب الإمام ، وبلغ من عنته وتضرر الناس منه مادياً وجسمانياً وعدم مبالاته ما حملني على إرسال عشرة من جنودي عليه ، فكان هذا أعظم رادع له ولغيره من الظلمة في المنطقة ، إلا أنه تمكن بعد ذلك من إثارة ضجة في ديوان الإمام ضدي بواسطة زبانية الديوان الذين كان يغرقهم بسمنه وعسله ، فاستدعيت ببرقية من الإمام شديدة اللهجة .

وسافرت إلى «زبيد» وبقيت أسبوعاً في انتظار رد الإمام على طلبي بارسال سيارة أو مركوب ، ولكن برقيتي كانت قد أهملت في الديوان ، فاضطررت إلى السفر على سيارة لوري أقرضني عامل زبيد تكاليف إيجارها ، ولكنها تعطلت بنا في سهل « البرح » ، وكان إصلاحها يقتضي الانتظار ثلاثة أيام على الأقل بينما تصل قطعة من غيارها فسافرت على جمل إلى تعز .

وذهبت في اليوم الثاني إلى الديوان فوجدت الكثير ينظرون الىّ في تخابث ، وفطنت أنهم كانو يتوقعون أن الإمام سينزل بي عقوبة مّا الأمر الذي دفعني لتقديم قراري المكون من عشر صحائف بالقطع الكبير استعرضت فيها أعمالي طيلة العام ، وقد كتبته بخط أنيق ضمنته كلما يجري

ولم اتهيب أن اوضح فيه رأيي حول الظلمة والمرتشين

فى المنطقة بأساوب شيّق مدعم بكثير من الاستدلالات والبراهين ، ولم أتهيب ان أوضح فيه رأيي حول الظلمة والمرتشين وعدم جواز توليتهم على رقاب الأمة ، وأشرت بصورة خفيـــة إلى أولئك الوسطاء من المأجورين فى ديوانه الشريف مع علمي بأنني لن أكسب من هذا إلا أعداء عشرات من شخصيات الحل والعقد .

* * *

— ١٥ —

واستدعيت فى اليوم الثانى الى مكتب رئيس الديوان الذى أطلعنى على رد الإمام على قرارى ، وعرفت أنه قد قرأه بامعان ، وكان رده يقضى باستدعاء نائب « الدّن » وتنفيذ كل مادة فى قرارى بحزم ، وأبلغنى تعليمات الامام التى تقضى بتعيينى بالديوان بوظيفة كاتب ، كما سلمنى تحويلاً نقدياً تمكنت به من تسديد ديونى .

وجئت الى الديوان فى اليوم الثانى لأجد مكاناً لى قد أعد فى جناح الكتاب ، وأخذ أولئك الذى كانت يقطّبون بالأمس يرحبون بى ويهشّون للقائى .

وكان الديوان يضم جناحين الأول جناح الأعضاء والثانى جناح الكتاب ، وكانت مهمة الأعضاء النظر فى الأمور الهامة من مسائل شرعية ونزاعات مستعصية ، بينما كان الكتاب يتولون التحرير والرد على العرائض والبريد .

وكان العضو يتقاضى مائةً وخمسين ريالاً مع كمية الطعام

شهرياً ، كما كان يتقاضى الكاتب مائة ريال مع كمية أقل من الطعام أيضاً ، وكان يمتاز العضو ببغلة ومراسل وكنت ممن شملتهم هاتان الميزتان ، كما كان بعضهم يفرض لنفسه مزايا أخرى تتعلق بالدخل غير المشروع ، أما أنا فلم يقتصر موقفى على رفض هذه المزية بل أخذت فى محاربتها ، إلا أن مسلكى هذا كثيراً ما جلب علىّ المتاعب .

وبالرغم من أنى قد رقيت بعد عام واحد الى رتبة عضو فإن ذلك لم يخلصنى من عناء الترحال ، فما من قضية تحدث ولا حادثة تنجم فى أى جهة مّا إلا وكنت المعنى بالسفر للتحقيق فيها ، فقمت فى خلال ثلاثة أعوام بخمس عشرة رحلة فى كافة أنحاء اليمن كنت أستغرق فيها من شهر إلى خمسة أشهر ، فرحلت شمالاً إلى صنعاء وعمران وصعدة وجنوباً إلى الحجرية والصلو والراهده ، وشرقاً إلى البيضاء ومأرب والجوف وغرباً زرت تهامة جميعها من باب المندب إلى ميدى وحرض والشرفين وكشر ووشحة .

وفى سنة ١٩٥٤ كانت شكاوى أهالى لواء إب بنائب الإمام فيها[1] قد كثرت ، وقدم أحد المشايخ الكبار[2] الى

(١) هو القاضى أحمد بن أحمد السياغى .

(٢) يدعى الشيخ منصور الجحيفى .

ديوان الإمام حاملاً قائمة طويلة بمظالم نسبها إلى هذا النائب الذى كان قد مر عليه أكثر من خمسة عشر عاماً كمتصرف مفوّض ، وطبقت شهرته وحزمه أصقاع اليمن ، وقد أعتبر الكثير إقدام هذا الشيخ على طلب كاشف عليه عملاً إنتحارياً .

واستُدعى النائب إلى تعز وتطلع الناس إلى ذلك الشخص الذى سيوكل اليه مهمة التحقيق ، ومرت بضعة أيام كان هذا الموضوع حديث الناس بينما ظل الديوان صامتاً ينتظر تعليمات الإمام .

وفوجئت فى النهاية باستدعائى وآخر معى وأبلغنا بالسفر فوراً الى إب . وهناك إتضح لى أن موقفى شخصياً كان دقيقاً للغاية ، فالكل أهل مصالح مرتبطة ببقاء النائب ، بيد أن إغضاب هؤلاء ليس بالأمر السهل العواقب .. ومن حولى جواسيس من كل لون مسلّحين ومعممين ، ومن أين للمظلوم والمضطهد ان يخلص إلىّ أمام هذا الخصم من النفعيين المغامرين ؟ وهذا شبح السياغى الرهيب قد تغلغل حتى فى الصخور .

وطلبت من موظفى الخزانة بعض حسابات حددتها ولكنى

لم أتلق رداً . وفوجئت بقدوم السياغى ليتخذ بعض إجراءات القصد منها إرعاب الأهلين ، وبدأ الخوف يدب الى نفوسهم واليأس الى مشـــاعرهم .

وهنا لم أجد بداً من أن أبرق للإمام برقية مطولة أوضحت له فيها أن الكشف على أعمال هذا النائب متعذر ما لم يعد الى تعز فوراً وما لم أجد الصلاحية المطلقة فى إتخاذ الإجراءات الضرورية ، فجاء الرد فى خلال ساعات باستدعائه وتعيين ملازم وبعض الجنود لمساعدتنا .

ورأيت أن المضىّ فى سبيل الحق وخدمة الصالح العـــام هو خير السبل ، وتمكنـا خلال شهرين ونصف وبعد أن اتخذنا بعض الإجراءات الضرورية من إنهاء التحقيق فى كلما أمرنا بالتحقيق فيه ومن وضع قرار محكم .

وعدنا إلى تعز وجاء الإمام إلى الديوان فى موكبه المهيب ليناقش قرارى على ملأ من الناس وفى حضور النائب نفسه ، وكان معنى ذلك إمتحان — أو بمعنى أصح — تبكيت لى ، فقد قرر الإمام إعادة السياغى إلى إمارة اللواء، وليس له مبرر أمام ناقديه غير إفحامى . على أنه كان فى إمكانه عزل خمسة

نواب من أمثال هذا وبمجرد ثبوت سبب واحد أو حتى بدون تحقيق إن هو أراد ، ولكن الذى فهمت بعد ذلك ومن جوابه علىّ أنه كان غاضباً على هذا حال إرسالنا إلى إب ، ولكنه أصبح فى رضىً عنه الآن .

وكنت قد أعددت قرارى على الطريقة الشرعيّة المألوفة حينذاك : الإدعاء ، ثم الإجابة ، ثم البرهان ، ثم الحكم المدعم بنتائج التحقيق ، وهكذا فى كل قضية من القضايا العشرين التى أمرنا بالتحقيق فيها وكان بعضها مبرئاً للنائب والبعض الآخر مديناً له .

وأخذ الإمام — مزمجراً — يناقشنى بصرامة فى كل قضية ، من تلك القضايا وكاننى المتهم بها لا المحقق فيها ، وألفيتنى أخيراً فى موقف المدافع من الطعن الذى كان يوجهه الإمام إلى قراراتى بصورة علنية محاولاً إفحامى ليجعل منه مندوحة لإعادة نائبه إلى منصبه ..

وكان الحاضرون — وجلهم من أنصار النائب — ما بين مستعذب لموقفى فهو يرمقنى فى سخرية المنتصر ، وما بين مشفق منه فهو يشير إلىّ بالتسليم للإمام فى كل ما يقول ،

كما هو الشيء السائد ، وبدلاً من أن أقف موقف المهزوم من أولئك أو موقف المطيع لهؤلاء ، إذا بهما معاً قد أثار كبريائي وفتقا لساني ، فصرت أجادل الإمام بحدة محاولاً إفحامه هو الآخر ، وخامرني عناد مستبسل جعلني أفضِّل معه قطع رأسي على أن أنصرف مهزوم النفس محطَّم القرارات .

وخيَّم على الديوان سكوت رهيب ، وبدا أولئك «الأتقيا !!» وكأنهم ينتظرون اللحظة التي يعمد فيها الإمام إلى صارمه البتَّار فيطوِّح برأسي ، ولا غرو فالهزيمة بالنسبة للإمام مما لا يخطر على بال إنسان ، فهو لم يهزم في ميادين الطعان فكيف يهزم في قاعة الديوان ؟ . . . ولكنه رأى في النهاية أن يقطع دابر هذا النقاش ، ولكن بطريقة لم تعجب أحداً ، وليس هناك ما يمنعني من ذكرها إذ هي جزء مما حدث ، فقد قال بلهجة عامية : « وحُمَّى !! ، رجعت اللقية سود »[1] فأجبت عليه بقولي : « كان في إمكانكم إرجاع النائب

(١) مثل صنعاني يقال لمن يأتي من الأعمال بما يخيب الآمال .

إلى منصبه دون إتعاب الآخرين » ، قلت هذا بعد أن نهض غاضباً .

ولما لم أكن حينذاك أعرف من طبائع الإمام الخاصة شيئاً فقد صرت أتوقع بطشه ، وتكهن بعضهم بفصلى أو إعتقالى ، بينما جاء آخرون يطمئنونى بقولهم أن الإمام شجاع وهو يحترم الشجعان فى سبيل الحق ، ولما كانت مجادلتى له مجادلة علمية مجردة عما يخل بالأدب وسوء التعبير فقد كنت مطمئن الضمير ، على إنى قد بعثت إليه رسالة مطولة فى نفس اليوم أوضحت له فيها موقفى بصراحة ، فجاء رده رائعاً ومطمئناً ومخيباً لآمال السماسرة والإنتهازيين .

وفى ذات يوم كنت قد أديت العصر ثم انتحيت إلى جانب فى حجرتى وإذا بى أسمع ضجة على باب منزلى فأطليت برأسى من النافذة لأرى مدير الشرطة وخمسة من من رجال الأمن ، ولم أشك فى أن هؤلاء قد جاؤا لاعتقالى ، فارتديت ثيابى وهرعت فى الحال ، وإذا بالمدير يبلغنى أمر الإمام بانتقالى إلى « الحوبان »[1] للتحقيق فى حادث بسيط ولكنه كان الشرارة الاولى لاندلاع ثورة ١٩٥٥ ، فانطلقنا

---

(١) منطقة واسعة شمالى مدينة تعز .

فى سيارة عسكرية ، ولم نمض بضعة أمتار حتى شاهدت المقدم أحمد الثلاثى ينطلق هو الآخر من بيته حاملا بندقيته نحو الحوبان ، فاشرت إلى السائق بالتوقف وأركبته إلى جانبى ، وفى خلال نصف ساعة كنا قد وصلنا قرية النجدة ، ووجدنا جنديين وثالث من الأهالى كلهم ملقون على الأرض قد فارقوا الحياة كنتيجة لتبادل إطلاق النار بين ثلاثة من الجنود كانوا قد أغاروا على حطب القرية ليأخذوه وبين شيخ القرية الذى وقف صامداً يذب عن حطبه .

وكان الجندى الثالث قد اتجه إثر الحادث إلى الثكنات ليعلن ما جرى ولكن بصورة مثيرة ، وما إن بدأنا فى التحقيق حتى فوجئنا بجموع الجيش قد أقبلت حتى لقد خيل إلى أنه لم يبق فى الثكنات أحد ، وصاروا ينادون المقدم بالتقدم لأخذ الثأر ، أما سكان القرية وما جاورها من القرى الأخرى فقد تركوا مساكنهم ونزحوا إلى قمم الجبال تاركين أموالهم وديارهم .

وجعلت أهدئ من روع الجنود وأعدهم بأن العدالة

ستجرى مجراها ، ولكن كلامى لم يؤثر فى جيشانهم ، وخلوت بالمقدم حيث رجوته إتخاذ كافة السبل لحماية السكان وتأمينهم ، وسارعت بانجاز التحقيق مستنداً إلى أقوال الجندى الثالث ثم اتجهت إلى « مقهاية الأمير »[1] ومعى المقدم ، وانكفأ الجنود وراءنا .

وما هى إلا دقائق حتى أقبل رتل من السيارات يقل أحد الأمراء وقائد الجيش وبعض موظفى القصر ، وقد اصطف الجيش فى شكل دائرة حيث استمع إلى كلمتى الأمير والقائد ، وبعد مناقشة طفيفة إقتنع الجيش بالعودة ، ووجه بعض هؤلاء اللوم إلى المقدم لخروجه ، وتساءل آخرون عن كيفية ذلك .

وبعد أن قفل الموكب إنبث عدد كبير من الجيش فى القرى فاحرقوها واستاقوا ما فيها من أموال ومواشٍ إلى الثكنات ، واتجهت مع مدير الشرطة إلى مقر الإمام لنعرض

---

(١) المقهاية نزل المسافرين كما سبق . وتقع هذه بضاحية تعز الشمالية فى الطريق إلى صنعاء .

عليه تقريرنا فلم نجـد مجالاً لمقابلته ، بينما قابله بعض موظفى قصره ممن شهد الحوبان وأبلغوه معلومات مشوَّهة عن الجيش والمقدم وربما عنى شخصياً ، فقد صرت فى نظرهم متهماً لأنى أركبت المقدم معى بينما كنت كذلك فى نظر الجيش لأننى نصحتهم برحمة المواطنين .

وصدرت الأوامر باعتقال المقدم ، ولكنه إتجه مع جيشه صوب الثكنات ليدير حركة الانقلاب ، وبينما كنت أغادر منزلى فى الصباح إلى مقر عملى إذ سمعت إطلاق النار نحو مقر الإمام من كمائن متعددة كان بستان المطبعة الذى أمام منزلى إحداها .

وتوقف إطلاق النار فجأةً ، وجاء مراسلى ليخبرنى بأن الإمام قد انتدب أخاه «عبد الله» إلى الثكنات عن طلب الجيش ، وأن المقدم قد استدعى رجال الديوان والموظفين ، ولما هممت بالتوجه نصحنى بالبقاء وقال إنه سيوافينى بكل ما يجرى .

وطالب الجيش فى الاجتماع مبايعة الأمير عبد الله إماماً ،

ولكن بعض العلماء رفض ذلك إلا بعد تنازل الإمام بحُجة أن فى أعناقهم بيعة [1] له ، وشكل وفد من الحاضرين لإبلاغ الإمام بمطالب الجيش ، فقبل فكرة التنازل بل كتبها بخط يده .

وأقبل الناس إلى الثكنات ليبـــايعوا الإمام الجـــديد « المنصور بالله » . ومرت أربعة أيام وهؤلاء يروحون ويجيئون ، وبدلاً من أن يبايعوا وينصرفوا إذا بكل منهم يستل قلمه وهات ما قرطسه ، فهذا يطلب سيارة وذاك إعانة وذلك زيادة معاش ، والإمام المنصور بالله مكتنز فى فى زاوية الكاووش [2] لا يدرى كيف ولا من أين يبدأ ، كل هذا يجرى والإمام أحمد قابع فى شباكه يرقب كلما يجرى عن كثب ويتحين الوقت المناسب لضربته الحاسمة .

* * *

كنت قد لزمت دارى منذ عودى من الحوبان لا أغادره إلا إلى الجامع لأداء الفرائض ، ذلك أنه لم يدعنى أحد

---

(١) البيعة : القسم ونصه : « نبايعك على السمع والطاعة فى المنشط والمكره وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ... إلخ » .

(٢) أى ثكنات الجيش وهى كلمة تركية لاتزال متداولة فى اليمن .

فأجيبه ، كما إنى لم أكن فى حاجة لأن أعرض نفسى على الإمام الجديد ، وانتهزت فرصة فراغى فانصرفت إلى ترتيب مكتبتى وتنظيم ملفات رحلاتى ، غير أنى لم أشعر ذات مساء إلا بأحد جيرانى — وكان عضواً بالمحكمة الشرعية — يخبرنى بأنه سمع إسمى يدور فى حضرة المنصور ، فسألته عما يراد منى فقال : إن هنالك كثيرين تخلفوا عن البيعة ، وربما تُتخذ ضدهم بعض الإجراءات وأخشى أن تكون من ضمنهم وأشار علىّ بأن نذهب إليه معاً .

وذهبت مع هذا الصديق لمقابلة المنصور ، وما إن أخذت مجلسى حتى التفت إلىّ قائلاً : « إننى أعرف أن هنالك بعض الإخوان يتهربون عن البيعة ، وهم — فى الواقع — معذورون ، لأن تنازل الإمام كان غامضاً ، ولكنى ذهبت إليه اليوم وطالبته بتحرير التنازل الصريح ، وقلت له إنه إن لم يفعل فسأتركه وشأنه مع العساكر ، وأنتم تعرفون أننى فى غنىً عن هذا الأمر ، ولكنى أحس بمسئولية أمام هذا الوطن » فأجبته قائلا : « أنا فى الواقع لم أطلع حتى الآن على تنازل الإمام حتى أدرك غموضه وليس فى عنقى

له بيعة حتى أحجم عن بيعتك ، وفى إعتقادى أن البيعة ليست ضرورية ، فهؤلاء الذين بايعوك قد بايعوا لمن قبلك وسيبايعون لمن يأتى بعدك ، وإنما المهم ما أعددتم للثورة » ، فقال : « نحن فى الطريق ، وبتعاون المخلصين سيحقق الله الآمال » .

واندهشت عند ما مد لى يده قائلاً : « تفضلوا بايعوا » ورأيت أن من واجبى أن أفهمه بأننى لست مهماً إلى هذا الحد حتى يشغل نفسه بمبايعتى له وحاولت أن أوضح له بأننى فى الواقع لست من أهل الحل والعقد ، وإنما أنا مجرد مواطن ينشد الأمن ويطلب السلام ، وليس فى مقدورى أن أصنع شيئاً فى سبيل نصرته إن أنا بايعت أو خذلانه إن أنا رفضت ، أو بعبارة أخرى أردت أن أنصحه بأن لا يهتم بأمثال هذه الترهات التى تشغله عما يجب عليه عمله ، وكنت قد علمت أنه قد أمضى بقية نهاره مع مفكريه فى إستحضار لقبه المناسب فقط وهو « المنصور بالله » .

واستغربت حيث لم يفهم غرضى ، فقد أجابنى قائلاً : وقد احمر وجهه غضباً : « لا ، يا أخ أحمد ليس الآن وقت

مراوغة » فلم أملك عنـــد ذاك إلا أن ناولته يدى ليحلفها كيف شاء .

والتقيت بالمقدم حال خروجى فى حجرته المظلمة وحدثته بما جرى فصار يضحك ، ووجدته متشائماً من الوضع ، وقال لى: أخشى أن نكون ضحية هؤلاء الذين يدورون حولنا كالفراش فلم يتركوا لنا لحظة ندبر فيها شئوننا ، ثم هم يأتون لمبايعتنا ثم يتصلون بأحمد سراً ليلعبوا على الحبلين .

كان المقدم رجلاً وطنياً ، وكانت علاقتى به علاقة قديمة منذ إقامتى بصعدة كما أسلفت ، وكنا فى تعز نلتقى قبل الثورة بعد صلاة الفجر من كل يوم لنعود إلى دارينا المتجاورتين ، وكان يتمنى أن يكون الإمام أحمد منقذ هذا الوطن ، إلا أنه قرر أخيراً أنه لن يقدم للبلد أى مصلحة لا سيما بعد تقدمه فى السن واعتوار الأمراض له ، وكانت فكرة تنازله لأخيه عبد الله فكرة صائبة إذ كان هذا قد أوتى قسطاً من الثقافة العصرية ، فقد زار أقطار العالم وعرف كيف يعيش الناس .

- ١٦ -

كان الإمام أحمد قد تنازل عن العرش لا بمحض إرادته ، وإنما تجنباً لدخوله فى صراع مع الجيش فى الوقت الذى لم يعد له عدته ، ولهذا فقد أخذ من يوم تنازله يعد العـــدة ويضع الخطط سراً لاستعادة عرشه ، ورأى أن انتقال الأمر إلى أخيه لن يجعل حياته فى مأمن فهو ليس رجل حرب وقد سبق له أن فر من الحديدة سنة **١٩٣٣** عند ما كان أميراً بها أمام طلائع قوات الملك عبد العزيز آل سعود وترك الحديدة غنيمة باردة للجيش السعودى .

وإلى جانب هذا كان يحس بأن له أعداءاً كثيرين لا بد أن يندسوا فى صفوف الثائرين ، وأنهم — بعد أن أصبح تحت رحمتهم — سوف ينقضُّون عليه فى يومٍ مّا فيسحلوه أو يقتلوه ، فأخذ يعمل فى صمت : يجلب الأرزاق إلى قصره ، ويدخر الماء فى البِرُك والخزانات و يبعث برسائله سراً إلى أنصاره .

وأثار هذا الحادث غضب أنصار الامام

وفطن المقدم لبعض ما يجرى فأرسل كتيبة لترابط حول قصر الإمام وأناط قيادتها بضابط ثائر . وأبلغ الإمام – وبعد مضى أسبوعين من الإنقلاب – بمن يتحدث عن تفتيش قصره ، الأمر الذى جعله يتعجل الأمر ، فكتب رسالة مطولة إستهلها بقوله : « إلى كافة من يقــول لا إله إلا الله » أهاب فيها بالمواطنين بالثورة ضد من سماهم المفسدين ، وبعثها إلى أحد مشايخ الأهنوم ويدعى الشيخ يحيى الغُمارى الذى صار يقرؤها على جماهير الناس بالمفتوح وبجوار ثكنات الجيش .

وأبلغ المقدم فاستدعى الغمارى إليه ، ولما هم بجذب الرسالة من يد الغمارى إذا بعيار نارى ينطلق من بندقية إبنه صوب المقــدم فلم تصبه فقتل الغُمارى وإبنه فى الحال ، وأثار هذا الحادث غضب أنصار الإمام من قبائل حاشد وأرحب فى تعز والحجرية ، فقد كان هذا الشيخ أحد عرايف الجيش البرانى المرابط فى الحجرية التى كانت تغَصّ بمشايخ هذه القبائل بل كان صديقاً حميماً لعاملها الجندارى[1] صاحب النفوذ المطلق لدى هؤلاء .

---

(١) هو القاضى حسين بن أحمد الجندارى السالف الذكر .

ولهذا قرر المنصور والمقدم ومستشاروهما تحرير رسالة عاجلة إلى الجندارى ومشايخ حاشد وأرحب على أن يرفق معها تنازل الإمام الصريح ، ووقع إختيارهم على كمندوب لشرح الموقف وأخذ البيعة من الجندارى ورجاله .

وهكذا — وفى الوقت الذى يوشك أن يتمخض عن حرب طاحنة بين الإمامين — أفاجأ بجنديين قد شهرا حرابيهما يستاقانى إلى الثكنات ليبلغنى المنصور السفر فى الحال ، وكنت أحدس بأن الحرب ستنشب خلال أربع وعشرين ساعة على الأكثر ، وكان أكثر ما يهمنى أن منزلى يقع فى محور المعركة فالمراكز العسكرية تحف به من جميع الجهات ومن فوق الجميع قصر الإمام المكتظ بالحديد والنار والرجال ، وكنت أرى أن بقائى للدفاع عن أولادى من أوجب الواجبات .

ووجدت المنصور مصمماً على سفرى وها هو قد أمر لى ببغلة ، ومعنى هذا أنى لن أصل إلى الحجرية إلا بعد يومين وقد نتعرض لأخطار فى الطريق . ولم أجد بداً من الدخول فى مغامرة أعظم خطراً وهى أن رجوت المقدم تعيين سيارة جيب لسفرى عليها بالرغم من علمى بأن الطريق

إلى الحجرية فى غاية الوعورة ، فأمر بها فى الحال وبخمسة من الجنود مع عدد من المحارف والمقالع التى نستعين بها على إماطة ما يعترضنا من صخور فى الطريق .

وكان غرضى من السفر على سيارة هو لكى أتمكن من العودة بسرعة . وجيء لنا بسـيارة جديدة بقيادة الحاج محمـد جياش الذى خرج هو الآخر تحت تأثير الحراب ، وسافرنا بعد أن أدينا العصر فى سرعة متناهية ، وأغنتنا جرأة الحاج جياش على قفز المطبات والتهام المرتفعات والمنحدرات عما أعددنا من مخارف ومقالع ، ولم نعد نضطر إليها إلا فى أندر الحالات .

وكان وصولنا بالسيارة إلى « التُربة » معجزة فليس هناك طريق للسيارات غير تلك التى شقت قبل عشر سنوات ثم أهملت وعبثت بها السيول . وخرجت التُربة ليلاً لاستقبالنا عن بكرة أبيها وعلى رأس الجميع الجندارى ورجاله ، وكانوا جميعاً فى غاية اللهفة للإطلاع على ما يجرى فى « تعز » فالطريق ممنوعة وخيوط التلغراف مقطوعة .

ومرقنا إلى دار الحكومة بسـيارتنا فى الظلام

بين كتل الجماهير. وخلوت بالجنداري وبعض المسئولين حيث دفعت إليهم كتاب المنصور ، ولشد ما كانت دهشتى عند ما أطلعونى على رقعة بخط الإمام أحمد قالوا إنهم تسلموها قبل ساعتين من يد شخص متسوّل يأمرهم فيها بتجهيز ثلاثة آلاف مقاتل وإرسالهم فى الحال عن طريق « دار النصر » لمهاجمة الثكنات .

وطلب الجنداري تأجيل الموضوع إلى الغد ، أما أنا فقدرأيت أنه لا فائدة فى شيء فالحرب واقعة لا محالة ولا بد من إنتصار الإمام أحمد لأن الثكنات تقع تحت رحمة قصره الحربى ، ومعنى تأخرى إلى الغد هو أن أساق إليه فى السلاسل لأن مسلكى كان ضده على طول الخط .

وكنت قبل شهرين فى التربة عند ما نقَّصت مرتبات العرايف لعدم وجود بعض تابعيهم من الجنود، ولم يقف بى الأمر عند هذا الحد بل طالبتهم بتسليم العساكر الذين كانوا يتجولون فى القرى ويعيثون فيها فساداً الأمر الذى عمَّق اضطغانهم علىّ بعـــد أن كنت بطلاً من أبطال أحلامهم .

وتمكنت من إقناع الجندارى بتحرير رد إجمالى ، وفى هذه الأثناء جاء إلىَّ الحاج جياش ليهمس فى أذنى قائلا بأن العرايف يأتمرون لإلقاء القبض علىّ عند ما أخرج فى الصباح فأشرت إليه بأن يكون على أهبة الاستعداد لمغادرة « التُربة » عند ما يهجع الليـــل .

وفوجىء الفاضل الجندارى وهو يعد مرتبة نومى بيده بنهوضى لتوديعه ، وعند ما حاول إثنائى عن رأيى قلت له إن مهمتى قد انتهت ، وإن لدى من المشـــاكل ما يوجب سرعة عودى .

ووجدت الحاج جياش مستعداً مع كامل الرفقاء ، وما إن وضعت قدمى على السيارة حتى بدأ فى الانطلاق ، ورافقنا الجندارى إلى باب المدينة كى يعطى أوامره للحرس بمرورنا .

وواصلنا سفرنا بقية الليل تارةً نسير وتارةً نتوقف لنميط الجلاميد من طريقنا ، واقتربنا من تعز حال طلوع الشمس على قصف المدافع وهدير الرشاشات ، وأوقفنا أحد المارة ليحذرنا من الاقتراب من خط النار ، وقال إن الحرب بدأت من مغرب اليوم السابق . . .

وسلكنا الطريق المؤدى الى العرضى بين شظايا الرصاص المتطاير

وأخذ الحاج جياش يسير فى سرعة جنونية ، وكأننا نفر من معترك المنايا لا أننا ننطلق نحوها ، وسلكنا الطريق المؤدى إلى العرضى بين شظايا الرصاص المتطاير ، وأزعج مسلكنا الانتحارى هذا الجنود المرافقين لنا ورأوا اننا نسير نحو الهلاك بل قرروا مغادرة السيارة فى الحال .

وتوقفنا فى أسـفل مدرّج العرضى لإنزالهم ، ثم أخذنا نصعد غير آبهين بالقـلاع العسكرية التى تمطرنا بوابل نيرانها ، ولكننا ما كدنا نقترب من العرضى حتى كانت سيارتنا وجهاً لوجه مع رشاشات قصر الإمام ، وأصيبت فى مقدمتها بطلقات ثلاث فأوقفتها ، فقفزنا فى الحال منحدرين فى سائلة المستشفى ، ثم أخذنا نتجه جنوباً حتى ظهرنا على بيوت الحجلية ، وهنالك ودعت الحاج جياش ، ثم أخذت أعبر من خلال البيوت حتى نفذت إلى دارى ، فوجدتها مغلقة ويسودها صمت مروّع ، ولما طرقتها لم يجبنى أحد ، وتسربت إلى خياشيمى من ثنايا الباب رائحة البارود .

وعدت أدراجى لأطرق دار جيراننا ، وكانوا قد التفوا جميعاً فى طابق أرضى ، وما إن سمع ابنى الصغير صوتى

حتى هرع وتبعه أخواه وأمهما ومن وراء الجميع حماتى التى لا يلائم مزاجها أصوات الانفجارات ولا قصف المدافع ، فهى ما إن تسمع شيئاً من هذا القبيل حتى تطلق صرخة أعظم هولاً من من دويها .

وقد غادروا البيت إثر انفجار قذيفة هاون كانت قد وجهت إلى منزل المقدم الثلاثى[1] من نفس المدفع الذى كان إلى ما قبل ساعات يصوّب نيرانه نحو قصر الإمام ، وقد أخطأت هذه القذيفة منزل الثلاثى ومرقت إلى حجرة لى فى الدور العلوى قلبت ما فيها رأساً على عقب .

وأخبرتنى زوجتى أن زوجة الثلاثى وأخته ضمن المختبئات فى طابق جيراننا ، وقد غادرتا المنزل بعد أول قذيفة وجهت إليه .

وشاهدت بعد ذلك بقليل عصابة تنهب محتويات منزل الثلاثى بينما لا تزال الحرب على أشدها ، وكان هذا أعظم مدعاة لى فى تلك الحال لأن أشغل وقتى السّؤوم بالتأمل فى بعض الميولات البشرية .

---

(١) كانت المسافة بين منزل ومنزل المقدم لا تزيد على مائة متر .

وما أن بلغ الامام قتل أصحابه حتى أغلق ابواب قصره

وقد بدأ الإمام أحمد انتفاضته عند ما خرج بنفسه فى العصر إلى صحن قصره ووجه أوامره إلى الجنود وعلى رأسهم الضابط الذى أرسله المقدم للمرابطة مع كتيبته هناك ، ولم يملكوا إلا الإنصياع لأوامره ، وبدأوا بالتصدى للسيارات المارّة من باب القصر واستخدموها لنقل أسرة الإمام من نساء وأطفال إلى قصر « صاله »(1) ، وقد مرت هذه السيارات من باب الثكنات دون أن يُفطن لها ، ولكن المقدم أمر بالقاء القبض عليها فى طريق العودة ، وقُتل أصحاب الإمام ومن جملتهم الضابط الثائر فى داخل الثكنات بعد استسلامهم .

وما إن بلغ الإمام قتل أصحابه حتى أمر باغلاق أبواب قصره ومباشرة إطلاق النار صوب الثكنات كما أمر بضرب مواسير المياه وأسلاك الكهرباء وفصلها عنها ، وفى نفس الوقت أبلغ مدفعية القاهرة ودار النصر وصاله بتصويب مدافعها صوب الثكنات أيضا طبق إشارة كان نقد عينها لهم من قبل .

---

(1) شرق العرضى فى مسافة ٤ كم تقريباً .

ووقتها لم اشعر الا بخروج الامام يسير فى خطى سريعة

وظلت رشاشات القصر – ولمدة ثلاثين ساعة – تمطر الثكنات بوابل من النيران الأمر الذى أعجز الجيش عن أية مقاومة وقتل منهم كثير بينما خرج من بقى فى جماعات صغيرة حاملين أعلام الاستسلام . ولجأ المنصور بالله ورجال دولته الى طابق أرضى يجأرون إلى الله فى ابتهالات حارة خاشعة .

ورأى المقدم مع من ثبت معه من الضباط والجنود أن لا جدوى فى أية مقاومة ، فلا عتاد ولا استحكامات ، ولا ماء ولا قوت ولا رجال ، فقرر الفرار مع ثلاثة من أنصاره فى جنح الظلام ، وما إن غادر الثكنات حتى اختفى رفاقه من حوله ، وسلك بمفرده وادى صاله ، ومنه نفذ إلى قرية فى سفح « عـبَـدان » وشاهده أهلها فعرفوه ثم أوثقوه بالحبال وجاءوا به إلى قصر صاله ، ومنه نقل إلى قصر العرضى وقت الظهيرة .

ووقتها لم أشعر إلا بخروج الإمام يسير فى خطىً سريعة يحف به رجاله متجهاً نحو الميدان وقد غصّ فى الحال بالجيش الذى شكل دائرة كان الإمام يقف فى وسطها وبجانبه المقدم الثلائى مكتوف اليدين وثالثهما الجلاّد الوشاح منتضياً سيفه .

وأقبلت الجماهير من كل صوب ، فنهضت إلى الميدان الذى لا يبعد عن منزلى أكثر من مائة متر تقريباً ، ورأيت الإمام وهو يجول فى وسط الحلقة وسيفه على عاتقه ، وهو يقول : « أبنائى ضباط وأفراد الجيش ، لا أظن أن إنساناً على وجه الأرض يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر يجرؤ على أن يوجه بندقيته أو رشاشته إلى أخيه المسلم عدواناً وظلماً فما بالكم إلى نحر إمامه الذى علمه ورباه ، إننى أبوكم وقد علمتكم ودربتكم لتكونوا حماة لهذا الوطن ودرعاً لليمن تصدون عنه عدوان المعتدين من الظالمين والكافرين .

يا سبحان الله ! أين جاءت عقولكم وأين صارا إيمانكم حتى تصدقوا هذا الشيطان الرجيم . ؟ !

حاربتم أباكم وإمامكم وأطلقتم الرصاص على بيته وأفزعتم أطفاله ومحارمه ، إننى لا أملك إلا أن أقول ما قاله العربى الأول :

قومى همو قتلوا أميم أخى فاذا رميت يصيبنى سهمى

سأقول سامحكم الله وعفى الله عنكم ، وهنا صاح الجيش بصوت واحد « الله يحفظ الإمام » ثم التفت إلى المقدم الثلائى وقال : أما هذا فطالما أفسد وطالما تمرد ، وطالما عفوت عنه

وقابلت شره بالخير وبطره بالإحسان أملاً فى صلاحه وتوبته، ولكنه كان كما قيل: «إنك لا تجنى من الشوك العنب».

وسمعت المقدم يقول: لا أنكر إحسانكم[1] لى ولا يهمنى مصلحتى أكثر مما يهمنى مصلحة الآخرين» قال هذا بصوت خفيض لم يسمع الإمام إلا طرفاً منه، ولكن الإمام أردف قائلاً: «والله سبحانه وتعالى يقول: إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض؛ ذلك جزاؤهم فى الحياة الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب مهين».

«ما قولكم يا أبنائى هل يستحق القتل بحكم الله ؟؟ وهنا صاح بعضهم بقوله: «نعم يامولاى» بينما صاح آخرون يناشدونه الرفق والرحمة فقاطعهم ملتفتاً إلى الوشاح قائلا: «أجر فيه حكم الله»، فأشار الوشاح إلى المقدم بالاستعداد ثم ضربه بالسيف على عنقه فسقط ميتاً ثم حز رأسه وعلقه على شجرة بجانب رأس المقدم عبد الرحمن باكر الذى سبق أن حُز رأسه عند الفجر بسكين جزار كما بلغ.

(١) العادة فى اليمن أن يخاطب المسئول أو من يستحق التوقير كخطاب الجماعة.

وعزفت الموسيقى السلام الملكى ثم أدى الجيش الدعاء التقليدى بصوت واحد : « الله يحفظ الإمام » . وقفل الإمام راجعاً إلى قصره بين هتافات التمجيد ، وعدت إلى منزلى مذهولاً مما سمعت وشاهدت ، وكانت التساؤلات تتضارب فى رأسى : هل الحق بيد الإمام ؟ فلماذا إذاً ثار الجيش ضد حكمه ، أم العكس هو الصحيح فلماذا إذاً يحظى بهتافات الجماهير وتمجيدهم ، واهتديت إلى قرار هو أن القوة فوق كل اعتبار بدليل أنه لو كان النصر حليف المقدم لا ستحق تمجيد الشعب والجيش معاً . على أنه ليس هذا وذاك هو المهم ولكن المهم إنعكاس المفاهيم عند حاكمينا فهم لا يقبلون النقاش إلا فيما يجب لهم من السَّمع والطاعة لا فيما يجب عليهم من حقوق لشعوبهم .

ولعمرى أن فهم الشعوب لحقوقها يتوقف على مقدار وعيها وسلامة تفكيرها ووحدة نضالها فى سبيل انتزاعه ، ولن يكتب لها النجاح إلا إذا كان وعيها وإدراكها ونضالها على مستوى الشعب لا على مستوى الطبقات ، إذ أن الطبقية لا تخلو من نزعات ذات أهداف خاصة لا تتفق فى الغالب ومصلحة المجتمع ككل .

ومتى سيطرت الطبقية على مجتمع ما تكون تصرفات الجماهير مجرد دوافع لا إرادية ، ولهذا فان جهل الجماهير بحقوقها المشروعة يجعل منها أداةً لتمجيد المفسدين وإذلال المصلحين الذين يضحون بمصالحهم الذاتية فى سبيل تحقيق المصلحة العامة ،وعلى أية حال فان نتائج الغواية والتأثير على الجماهير بأية وسيلة ما لا تلبث أن تتلاشى ثم تنمحى ، ولكن انمحاءها لا بد أن يكون مرتبطاً إرتباطاً وثيقاًبل مرهوناً بتطور وعى الجماهير ونمو عقليتها وسلامة تفكيرها ووحدة نضالها .

* * *

وقُطعت رؤس بقية أنصار المقدم الثلائى من عسكريين ومدنيين خلال ثلاثة أيام متوالية كان يحضرها الإمام وجماهير الشعب ، وممن أعدم من العسكريين الملازم عبد الله حزام الصعر وعلى حمود السمه والملازم الجدرى ، ومن المدنيين القاضى يحيى السياغى وأخوه حمود .

وكان القاضى عبد الرحمن الإريانى على قاب قوسين من الموت فشُفع له وأعيد من الميدان ، ثم لم يلبث أن أطلقه الإمام ورد له مكانته السابقة فأصبح أحد بطانته وأهل الحظوة لديه ؛ وذلك بعد أن تقرب إليه بكتاب سمّاه : « إنقلاب الثلايا » .

— ١٧ —

هكذا أخمدت ثورة ١٩٥٥ وعاد كل شيء على ما كان عليه ، كما عاد الإمام إلى سرير المرض منذ الأسبوع الأول فلم يكن يظهر على أحد أو يقابلة شخص إلا نادراً ولم يزاول إلا أعمـــال الشفرة .

وسرّح أخويه عبد الله والعباس إلى حجة حيث أعدما ، وكان الأخير نائباً له بصنعاء وقد أحضر إلى تعز عقيب إخماد حركة الانقلاب متهماً بمناصرة شقيقه عبد الله .

ودخلت سنة ١٩٥٦ بفكرة الحلف الثلاثي فسافر الإمام إلى « جدة » واجتمع بالملك عبد العزيز والرئيس جمال عبد الناصر ، حيث تم توقيع اتفاق جدة ، ثم عاد بعد ذلك توا إلى السخنة للاستشفاء ، وأذن لابنه البدر بالقيام بنشاطات سياسية فزار موسكو وبراغ وبكين حيث وقع اتفاقيات صداقة وتعاون وتجارة .

ومكثنا أسبوعين نصطل بنار السخنة ونأكل الزربيان

واختارنى رئيس الديوان الملكى لمساعدته فظللت ملازماً له حتى ١٣ مايو سنة ١٩٥٧ عند ما زر السخنة[1] بطاب عاجل فأمرنى باستصحابه قائلاً إن ذلك عن أمر الإمام ، فسافرنا معاً بطريق الجو . وأنزلنا فى عريش أمير الحديدة حيث كان ينزل ضيوف الإمام الكبار ، ومكثنا أسبوعين نصطلى بنار السخنة ونأكل الزربيان[2] ، ولم أجدما أعمله فاضطررت إلى لعب الشطرنج مع اللاعبين وأضعنا الوقت كله بين البيادق والفرسان الفيلة .

وجاء أمر الإمام المباغت ليلاً بعودة رئيس الديوان إلى « تعز » دون أن يقابله أو يراه ، ولم يخالجه أو يخالجنى أى شك فى أنى سأعود معه . وحزمنا أمتعتنا وودعنا نزلاء العريش وفى مقدمتهم أمير الحديدة إلى « المطار »[3] .

وتعوّد المسئول عن ترحيل المسافرين أن يعرض على الإمام قائمتهم قبل إقلاع الطائرة ، وبينما أخذت مكانى بالطائرة إذا به يأتى ليبلغنى أمر الإمام بتأخرى . وهكذا أرجعت إلى

---

(١) قرية تقع على سفح جبل براع (٧٥ كم) غربى الحديدة كان الإمام يكثر من التردد إليها للاستشفاء بحمامها المعدنى .

(٢) الأرز يصنع على الطريقة الحضرمية

(٣) كان المطار لا يبعد عن القصر أكثر من ٢٠٠ متر .

الشخنة على مضض، ولم أعد إلى ذلك العريش الحادى بل ألقيت فى عريش آخر فى فناء قصر الإمام ويسمى عريش الوزير « أى وزير القصر » .

وقد وجدتنى فى هذا العريش فى موقف أشبه بموقفى فى قرية الموسطة بالاضافة إلى ان هذا الوزير كان على نقيض شيخها تماماً ، وكان يتولى إلى جانب عمـــله فى شئون القصر — يساعده شخص يدعى التمرجى — إدارة مكتب الإمام الخاص الذى كان الوسيلة الوحيدة فى إتصاله بوزرائه ومبعوثيه فى الخارج ووكلائه والوافدين إليه من طبقات الشعب فى الداخل ، وكان الوزير يعتبره أهم وسيلة يدعم بها سلطته وقهرمانيته على الإمام والناس .

لقد كانت الحياة فى هذا العريش غريبة ولكنها غير مزعجة بل كانت مرحة أحياناً ، فكان نزلاؤه — الذين أصبحت ثامنهم — يقضون معظم نهارهم مستندين إلى سرائرهم يمضغون القات — وأنا من الجملة[1] — من بعد الظهر حتى الغروب ، أما التمباك فيدخنونه باستمرار .

---

(١) كانت طريقة المؤلف فى استعمال القات تقتصر على خزن وريقات منه فى الفم دون مضغها لأن الاكثار منه مضر بالصحة كالاكثار من الشاى . وللمؤلف بحث مطوّل من القات فى كتاب « العادات والتقاليد فى اليمن » الذى لا يزال تحت الطبع .

ولم يكن هـذا العريش ماوىً لهؤلاء فحسب ، وإنما كان مورداً نهارياً لنزلاء السخنة من موظفى القصر : سواقين وعكفة[1] وخدم إذ كلهم مرتبطين بوزير القصر فى كل شيء ، كما كان مورداً لنزلاء السخنة من منكوبين ومعزولين وكانوا يشكلون فئات متعددة من الناس ففيهم قضاه وفيهم موظفون وفيهم مشايخ وفيهم قبائل وفيهم مطلوبون وفيهم عاطلون، وفيهم من مضى عليه الأسابيع والشهور لا عمل له غير التردد إلى هذا العريش أو إلى دائرة التلغراف الملاصقة له والتى هى أيضاً ضمن إمبراطورية الوزير ليرفع برقية إلى الإمام أو يسأل عن جواب منه .

وكان مطبخ القصر هو المصدر الوحيد لقوت الجميع ، ولهذا فكانت السيارات لا تنفك غاديةً إلى الحديدة فى كل صباح لتعود مثقلة بالمؤن والثلج والقات والمعلبات .

ومكثت بضعة أيام عاكفاً على سريرى أتقبل لفحات السموم وغوبات الأزيب ولا شغل لى غير التململ فى مكانى ومسح العرق المتصبب من وجهى ، ولا أفارق سريرى إلا إلى البهو لتأدية الفرائض أو تناول الطعام فى مائدة طويلة

(١) العكفة : حرس الإمام .

يغشاها لفيف من أشكال الناس ، وكانت تضم طيب الطعام ورديئه ، وكان طيبه من حظ الوزير والتمرجى أما رديئه فمن حظ الآخرين .

وجعلت من ترددى إلى بيت الماء — على الأقل — فواصل أروّح بها على نفسى بتغيير الجو وعلى جسمى باهراق الماء عليه .

وحدث ذات يوم أن هطل مطر غزير إخترق سقف العريش وانصـــبّ على رؤسنا فبلل مراتبنا ، ولما لم يكن هنالك مكان نأوى إليه فليس على كلٍ إلا أن يصمد فى مكانه حامداً نعمة السماء على ما ألقته جعبتها من ماء على رأسه ؛ والحل بعد ذلك بسيط فليس على النزيل إلا أن يعمد إلى حقيبته الفخمة فيستبدل ثيابه فى الحال ويدفع السوالف إلى موظف الغسيل .

أما من لا حقيبة له ولا ثياب إلا ما يكسو به جلده فان الجو الحار هو الذى سيتولى تجفيفها إن عاجلاً أم آجلاً حتى وإن أصيب بالتهاب البلورة أو حتى بالتدرن الرئون لأن الإنسانية مفقودة فى هذه المواطن ولا قيمة للمرء إلا بما يحسنه من تزلف ويجيده من رياء .

كما كنت اكتفى باى قوت وشراب أى ماء

ولما كنت قد تعودت الخشونة فى حياتى فكنت لا أبالى بأن أنزع كلما على سريرى من فراش ثم أنام على الحبال مباشرة ، كما كنت أكتفى بأى قوت وأشرب أى ماء ، وكان معظم نزلاء العريش مصابين بالأمراض فهذا بالملاريا وذاك بالتيفوه وذاك بعسر الهضم .

وكان مرض الأميباء والبلهارسيا أكثر ما يصيب الناس كنتيجة لتلوث الميــاه ، ولم يمض علىّ أسبوع واحد حتى بدأت أحسّ بالتهاب فى المثانة وحرقة فى البول نتيجة لعــدم ترشيح المــاء الذى أشربه إذ كنت قد تعودت — طبياً — أن لا أشربه إلا مرشــحاً ، كما بدأت أحس بعسر فى الهضم كنتيجة لأخطاء التغذية وإغفال الرياضة فكنت قد تعودت من صغرى على الجمباز الذى أمارسه صباحاً ومساءً فى منزلى .

ولم يقتصر الصخب والازعاج على النهار فحسب بل كانت حركة العريش تكثر فى الليل إذ كان — غالباً — هو الوقت الذى يستيقظ فيه الإمام لمزاولة عمله .

وكان جهاز اللاسلكى — ويقع فى عريش مجاور

وبالتحديد بهذا سريرى — لا يفتأ يسلك أذنى بصفيره المزعج ، لولا شيشة أمير الحرس التى كانت تظل وحتى الهزيع الثانى من الليل تروّح عليها بغناء شجىّ تنبعث منه مرارة الشكوى وكأنها تستغيث بى لاستمنحها عطفه عليها ورحمته بها .

هكذا وجدتنى أعيش فى محيط يعتبر من مسخ المقادير فليس فى استطاعتى أن أقرأ ولا أكتب ولا أنام ولا أؤدى أى نفع لبلادى ، بعد أن كنت فى الديوان أقوم بعمل مفيد للناس ومرض لضميرى ، إذ كنت أتولى بعض ما يُرفع إليه من الألوية والقضوات من مذكرات وشكاوى فأحرص على فكها بأسرع وقت ، وأرد عليها الردود الحاسمة المقنعة ، على أنى كنت أواجه بعض الحقد من أولئك المخربين اللذين كان لا يهمهم إلا أن تظل مجالات الأخذ والرد مفتوحة والمشاكل قائمة أمام شباك مطامعهم وأهوائهم ، وربما كان هذا السبب الرئيسى فى إقصائى إلى هذا المحيط القاتم .

ولم يمض أسبوعان حتى كنت قد أبلغت مع زميل آخر استدعى لهذا الغرض بتولى أعمال مكتب الإمام ، فكان هذا الإجراء بمثابة صخرة هوت على رأس وزير القصر الأمر الذى حمله على مغادرة السخنة فى نفس اليوم إلى صنعاء ، على

أنى لم أكن أحسن منه حالاً ، إذ كنت أعتبر ذلك بالنسبة لى تجميد لمواهبى وصرف لميولاتى عما تتوق إليه من حياة التحرر والعلم والتفكير .

وكانت كتب التفسير والعربية والفقه التى كنت قد شرعت فى دراستها بتعز ككشاف الزمخشرى وخصائص ابن جنى وكتاب سيبويه ومسائل ابن تيمية وغيرها أحب إلىّ نفسى من متع الحياة جميعها ، ولكن من أين للعقول المتناقضة أن يفهم بعضها البعض الآخر قبل أن تكون صغراها قادرة على فهم نفسها على الأقل ! !

وانتهزنا فرصة غياب وزير القصر فانتقلنا إلى مبنى يقرب من المطار ، وجيء لنا برفيق ثالث من موظفى الخارجية وكان شاباً مهـــذباً نبيلاً[1] ، وقد قمت مع هذا بمواصلة دراسة اللغة الإنكليزية ولمدة خمس سنوات تقريباً حتى أجدتها فأفادتنى كثيراً فى رحلاتى وفى وضع مؤلفاتى .

واقتصرت مهمة وزير القصر بعد عودته على ما يتعلق بشئون القصر بينما ظل المكتب يزاول أعماله وإلى ما بعد خمس سنوات ، وكان يقوم بدور هام فى الشئون الإدارية والإعلامية

(١) هو عبد الله بن على الشرفى .

والشفرة وصوغ المراسيم وفى بعض الشئون السياسية المتعلقة بمبعوثى الحكومة فى الخارج .

وتبنى المكتب من أول يوم شئون الوافدين ، وحل مشاكلهم ، واقتصرت مخابرات الشيفره بعد ذلك على المهام الحكومية السرية بعد أن كانت فى الغالب — ولمدة عشر سنوات — وسيلة للأغراض الشخصية التى لا تستفيد منها البلاد شيئاً .

وتلطف إفعوان القصر معنا فكان يزورنا ويبدى لنا بعض المجاملات ومنها نصب الحمباز بجوارنا ، وأخذت مائدتنا تسير فى طريق التحسُّن ، وربما أوضح للإمام بأننا كنا نستدين بعض النقد فى شراء حاجاتنا الخاصة إذ بدأ هذا يتعهدنا بهباته النافعة من وقت لآخر ، وعند ما زار الإمام الحديدة والجاح وبيت الفقيه كنا نلحق بركابه .

على أن هنات الوزير نحوى كانت تبرز أحياناً وتختفى أخرى تبرز عند ظهور الجو الملائم وتختفى باختفائه ، وكانت أحابيله ذات نسج متنوع ولكنه مرن إلى حد مّا . وعند ما انتقل الإمام إلى تعز وانتقلنا معه وجد الفرصة سانحة فقام مع التمرجى ببعض نشاطات تهدف إلى إيغار صدر الإمام ضدى ،

ولم أشعر ذات مساء الا برسالة عنيفة من الامام

واتخذا من فرصة خروجي إلى منزلى ذريعة لوصمى بالإهمال فى واجبى الوظيفى .

ولم أشعر ذات مساء إلا برسالة عنيفة من الإمام يتهمنى فيها بالتهاون فى عملى ومغادرتى للمقام دون استئذان مسبق فأجبت عليه برسالة كان فيها شيء من النزق إلا أنها تضمنت ما يبرر ظروفى .

* * *

— ١٨ —

لم يدم بقاء الإمام بقصر العرضى أكثر من سبعة أشهر حتى انتقل إلى قصر « صالة » فانتقلت معه ، وأنزلت فى حجرة بدار مجاورة للقصر كان ينزل بها بعض الشخصيات ، وكانت الدار بوجود هؤلاء لا تهدأ لحظة واحدة من الصخب والضوضاء إذ كانت تزخر بمجموعة من القاصدين والمتسولين ، وطالما كان النزلاء يتغيبون عن الدار فتقفل مقصوراتهم فى وجوه بعض الأفاقين والماجنين ، فكانوا يجدون من حجرتى ملاذاً يتقون به النوم على السلالم .

وكان من بين هؤلاء شخص أوتى قسطاً من الرعونة والتطفل المزرى والصبر على المكاره والتى أهونها صفع أصحاب السمو . وقد لقب فى صنعاء بالشارعة لكثرة تطفله على البيوت ، وكان قد فر من ثكنات الجيش بصنعاء إذ كان كاتباً بسيطاً بها ليستجير بأحدهم من تنكيل أمير الجيش به .

وقد حاول أن يجعل منى بطلاً لمجونه وتملقه فى الوقت الذى كنت أسبح فى خضم أعمالى المرهقة مما اضطرنى فى النهاية إلى إخطاره بعدم ولوج مكتبى .

وصادف أن جاءت مذكرة من إحدى الهيئات العلمية الكبرى فى الخارج تتضمن ترشيح أديب معروف ليكون ممثلاً عن أدباء اليمن فيها ، وعرف هذا من بعض الدوائر المطلعة فاتخذ من ذلك ذريعة لاستئناف تردده فى مسلك تملق جديد وتحت ستار أن المرشح هو عمه وأنه إنما يقوم بمتابعة الموضوع نيابة عنه ، مع علمه بأن الكل يعرفون بأنه لا يمت إلى شيخنا الأديب بأية صلة من صلات القربى .

وعرف بعد ذلك أن الموضوع أحيل إلى جهة الاختصاص وكان وزيرها حينذاك أحد أولئك الذين يتمسح بأذيالهم ، وفوجئت أخيراً بأن الترشيح قد حول — وبكل قحة — من إسم شيخنا الأديب الكبير إلى إسم هذا القزم المتماجن بحجة اشتباه وقع فى الإسم[1] . إن هذا مجرد مثل أوردته وهو يوضح لنا بأن سخرية الأقدار فى ابلادنا تستطيع

---

(١) يعنى بالأديب الكبير على بن يحى عقبات الذمارى وكان قد رشح عام ١٩٥٩ عضواً عن اليمن فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة فكان ماذكر ويعنى بالآخر أحمد بن على عقبات الشارعة ، لا ينصب الفاعل فحسب وإنما يرفع المفعول أحياناً بل يجره إذا دعت الحاجة ، وسئل ذات مرة : لماذا صار أحمد علماً ؟ فأجابه بقوله : لأنه نكرة .

أن تجعل من الحصباء شهباً ومن الأذناب رؤوساً .

وأغرب من ذلك أن هذا الغمر المعمم إستطاع — وفى عهدنا الثورى — أن يقفز إلى درجة عقيد دون أن تعرف له الثكنات وجهاً ، بل لأنه أصبح ذنباً لأصحاب السمو الجدد من آل صديق الذين لم يقتصر سخاؤهم على ندمائهم بالإنشوطات والرتب على حساب الجيش والشعب فحسب ، وإنما بالمناصب والوزارات وكراسى المجلس الوطنى وكأنه سلعة توارثوها من « محمد صديق » .

إنه لم يدفعنى إلى إيراد هذه الحقيقة وأمثالها طمعاً فى الثأر ممن رأوا فى استفزازى ملهاة لفراغهم ومتندحاً لبطالتهم وزلفى لدى أسيادهم ؛ بقدر ما اجتذبتنى إليها روعة العظة المستقاة من واقعنا المرير ، وأقرب دليل على ذلك أن هذا الشارعة كان أحد أذناب محمد أحمد السياغى[1] فى

---

(١) كان وكيلا للشريعة ثم حارسا لسجن نافع الرهيب لرعونته وطيشه ، وعرف بين المعتقلين بالعجل . ظل مع أخويه يحيى وحمود ردحاً من الزمن بفناء « قصر الناصر » يتعز يتاجرون فى الأحكام الشرعية . أما اليوم فهو صاحب وظائف متعددة يصعب حصرها ، أهمها أنه سمسار للبيوت وقاصم تركة آل الانبارى بزبيد وأخيراً عضو فى منظمة أرباب الملايين ، يدعى بأن له فلسفة =

توزيع المنشورات ضدى فى شوارع صنعاء فى مطلع هذا العام ، وعند ما حاولت السلطات منعهم وتأديبهم لم يسعنى إلا الوقوف ضد هذا الإجراء طمعاً فى فتح باب حرية القول والنقد الذاتى فى بلادنا وأن أجعل من نفسى هدفاً للتجربة الأولى ، حتى لقد تطورت تلك المنشورات إلى كتيباب لاتزال تعرض حتى اليوم فى مكتبات اليمن ، فهل — يا ترى — سيعاملنى هؤلاء معاملة الشجعان الكرام كما عاملتهم أم معاملة الجبناء اللئام كما هو دأبهم ؟ !

ولقد كان فى إمكانى الاستدلال بأمثلة أخرى تتعلق بالوضع

= وجيهة حول قطع يد السارق لأن قطعها — كما يدعى — مناف للذوق ، ولقد نقض ذات يوم على خزانة الدولة فى قضاء ريمه فنهبها نهبة واحدة وفر إلى عدن ، فلم تقطع يده بل عاد ليتولى منصب مستشار فى المجلس الوطنى . ونضاله معروف فى الذب عن العمامة والأكمام الطوال ، لأنها لا تزال « محبوبة عند القبيلى » على حد قوله . والعرق الهاشمى — على حد تعبيره — يجب إبادته من الأرض فى مذهبه وبدون فلسفة ، أما عمله المفضل فهو « الجولان » فى أماكن معينة من أسواق صنعاء —ومن ورائه ذنبه أحمد بن على الشارعة لإرهاب السكان على طريقة « كسيح صعدة » إلا أنه لا محفة له ، والويل كل الويل لمن يقف فى وجهه لأن أخاه أصبح ضابطاً بالأمن وضابط الأمن فى بلادنا معناه « الحاكم بأمره » . وقد جعل من عدائه للمؤلف وسيلة للبروز كمالم ولكن على طريقة « أم الأخرس » وتبعه بعض الأوباش فكان كما قيل « بال حمار فاستبال أحمره » .

الحالى ربما كانت بجد مثيرة لمشاعر القارئ – لو كنت ممن يحاول إستفزاز الآخرين – ولكنى رأيت أن أبلغ ما يختاره الكاتب من شواهد لموضوعه هو ما كان أكثرها لصوقاً بشخصه وبالأخص من يكتب عن حياته مثلى .

ولم أشأ أن أخرج كتابى هذا فى أسلوب دعائى أو نمط مسرحى فاخترع له الشخصيات البارزة والأسماء اللامعة ولهذا فإنى أحشر وقائعى على علاتها وبأسماء أبطالها الحقيقيين ومنها – كما رأيت – ما يفيض تألقاً على النجوم والأجرام ومنها ما تلفظها سجلات الإجرام .

وأنا لا أميل إلى التحذلق والإيهام ، بل أمقت حتى سجع الكلام ، إلا ما جاء بصورة عفوية وخواطر سهلة غير تعسفية فانى أقبله بنفس راضية ، ثم لا ألبث أن أفر من أغلاله وأتخلص من حباله .

* * *

لقد كانت أعمالى تأخذ منى النهار كله وشطراً كبيراً من الليل ، إذ كنت أحرص على إنجازها بأوقاتها ، ولا غرو فقد كانت تستحق ذلك إذ كانت تهم الأمة أكثر مما تهم الحاكمين ؛ فهى تبحث مشاكل الناس من مظالم وحقوق وأمور تتعلق بأمن البلد .

كل هذا كان يدفعنى إلى مواصلة العمل دون كلل ، كما كان يدفع غيرى من ذوى الضمائر الحية والإحساسات النبيلة ، أما أولئك[1] الذين لا تهزهم إلا أوتار المصالح فلم يكونوا يحفلون إلا بما يرضى مطامعهم ويشبع شهواتهم ، ثم هاهم يأتوننا متغزلين بماضى تقدميتهم وسابق ثوريتهم !!.

قل لى – بربك – هل كان هؤلاء – حقيقة – علماء بالثورية والتقدمية ؟ ؟ ولماذا إذاً احتكروا علمهم هذا على ممن كانوا يركعون على أقدامه ليل نهار والذى كان لا يعرف حتى مدلول الديموقراطية كما أوضحت لك ؟ ؟ أقول لو جاز لنا ذلك لجاز لنا أن نعكس النظرية القائلة بأن « الأعور أمير فى مملكة العميان » .

وقد تعتريك الدهشة – ياقارئى – إذا علمت بأن مفاهيم الثورة فى بلادنا حينذاك – وبحكم تخلفنا الفكرى وحتى لدى أولئك الذين قدموا أرواحهم رخيصة فى سبيل ما يهدفون إليه – كانت تقتصر فى فلسفتها الثورية على تقويض عرش لإقامة آخر لا لأن يحكم الشعب نفسه بنفسه ، ولكن دهشتك سوف تتبدد إذا عرفت أن هذا هوما كان فى ثورتى سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٥ .

ولئن كانت أدنا المفاهيم الثورية قد أدركها المصلحون

---

(١) يعنى بهم آل صديق وبنى الأكوع والشامى وغيرهم .

حينذاك بمحض الفطرة من النزول عند مستوى الشعب واحترام المواطن عرضه وماله فصاروا يطبقونها فى معاملاتهم بينما كان هؤلاء يتعالون على الضعيف ولا يرقبون فى ماله ولا فى عرضه إلاً ولا ذمة ــ نفس مسلكهم اليوم[1] ــ فهل هذا من الثورية والتقدمية فى شيء ؟ ؟

ومن ثم ففى إمكانك أن تعرف أنه لم يكن هناك من يصلح لأن يطلق عليه ثائر أو تقدمى من هؤلاء فالكل كانوا صوالحة للحاكمين وإنما كانت هذه الصوالحة تختلف فيما بينهما فبعضها كان معقوفاً والبعض الآخر كان مستقيماً .

وإذا كان هنالك من يستحق هذا اللقب فهو هذا الشعب المناضل ورواده المصلحين الذين سيقضون على مخلفات الماضى

---

(١) إذا كان دخل فرد واحد صغير من أسرة صديق - وهو على بن يحيى تاجر الأحكام الشرعية - يتراوح بين ٥٠٠ - ١٠٠٠ ريال فى اليوم الواحد بدلا من ٥٠ - ١٠٠ فى الهيئة الشرعية سابقاً فما بالك بغيره من أهل الأجواخ الملونة ! ! وإذا كان الوجيه نفسه يستبيح أموال الأمة فيصرف فى سفرته فى اليوم الواحد ما كان الإمام أحمد يصرفه فى عدة شهور فى هذا الوقت الذى يكاد يأكل الناس بعضهم بعضا من الجوع فهل ترانا تطورنا بهذا أم تقهقرنا إلى ما وراء التخلف ؟ ؟

من رهبنة ودجل وتضليل ، ويرسون دعائم العدالة الاجتماعية على أسسها الصحيحة فلا انتهازية ولا طائفية ولا هذا دخيل وذلك أصيل ، ولا هذا يصلح للحياة وذاك يصلح للموت ، بل الكل أبناء وطن واحد كلهم يصلحون للحياة ولا يصلح للموت إلا الخونة والمستغلون وتجار الحروب وقراصنة المغانم .

* * *

ها أنذا — يا قارئى الكريم — قد كشفت لك الصفحة الأولى من سجل حياتى ، وأبحث لك بخافى مكنوناتى ، غير مغرور بك ، ولا مستأثر عليك ، وإنما هو الحق قلته ، والصدق أعلنته ، أما أولئك الذين أكل الحسد قلوبهم ، ونهش الحقد أحشاءهم ؛ فصاروا يشنون الحملات ضدى وضد مؤلفاتى باقتحامهم المكتبات وشحنها بالعربات ، كل ذلك علناً فى وضح النهار ، وبقوة السلاح والنار[1] ،

---

(١) فى فبراير سنة ١٩٦٩ قام مطهر بن على صديق ومعه عميله دهمش بأمر الوجيه بالسطو على مكتبات صنعاء والحديدة ونهب جميع مؤلفات صاحب هذه « البداية » وقد حشروها بالآلاف فى سياراتهم إلى أماكن مجهولة ، ثم أشاعوا حينذاك أنهم رموها إلى البحر .

فأقول لهم : هونوا عليكم ، فليست المعالى حكراً على أحد ، وليس المجد إلا لمن عمل وجد ، على أننى — لو علمتم — لست من المدلهين بحب هذا وذاك ، ولا ممن يرنوا إلى مسابح الأفلاك ، وإذا كان شغفى بدراسة تاريخ اليمن وحضارته قد سيطر على قلبى ولبى ، فركبت — تارة — أخطار الأسفار ، وجشمت — أخرى — عزلة عقر الدار ، أفكنت أستحق منكم جزاء سنمار ؟ ؟ . إنه ليكفينى أن الرأى العام اليمنى قد أحاط علماً بما تأفكون ، وليس معولى على غير التاريخ فهو كفيل بمحاسبتكم بما ترتكبون .

وليت الأمر وقف بهم عند هذا الحد ، بل قد صاروا يطبعونها — سرقة — بنصوصها وعشرات فصولها ، وينقلونها إلى كتب أخرى محرفة ، فارتكبوا بهذا عارين ، وباؤا بوزرين ، وهكذا لم يكتفوا بسرقة الأمة ، والاستهتار بحقوقها ومقدراتها ، حتى وصلوا فى النهاية إلى المتاجرة بتاريخها وحضارتها[1] .

---

(١) فى العام الماضى انتدبوا المدعو عبدالله بن أحمد الثور — أحد بائعى الأحذية بسوق الملح — إلى الخارج ليتولى عملية سرقة كتاب المؤلف « اليمن عبر التاريخ » وكتاب « هذه هى اليمن » للويسى وغيرهما إلى كتاب آخر سموه « هذه هى اليمن » ، وأضافوا إلى ذلك بعض التحريف ، وانبرى لتمويل العملية شخص يعتبر خال =

وأفضى بهم حقدهم المتأجج أخيراً إلى التأليب عليّ، وتوجيه التهديد والإنذارات إليّ مما اضطرني إلى مغادرة بلادي، على أنه حدث في غداة اليوم الذي بارحت فيه مطار « الحديدة » ما يندى له جبين الانسانية : فقد

=للثور ويدعى حمود بيدر؛ هذا الشخص كان طالباً بالحربية يرتدي المرقعات ويتلمض للكدمة « خبز الذرة » ولكنه خلال السنوات القليلة الماضية قفز من « صعلوك » فقير إلى « عميد » مليونير . أما الرزق فقد صبه الله على رأســه صباً ؛ فهو مدير الكاليه ، وتاجر مهماتهــا ومتقنطر مبانيها ومقاود مستلزماتها ، وهو عضو في منظمة النهب والقرصنة ، وبسعادة « الوجيه » أصبح تاجراً في الحبوب ومحتكراً لقوت الشعب ، فقد اقطعه هذا امتياز توريده ؛ ففتح الشون الواسعة ، واستورد مواتر النقل الضخمة ، وهكذا فهو يستورد الكيس القمح بريالين ثم يبيعه من الشعب الهالك بسبعين . وقد قام بتمويل سرقة الكتاب لا ليقرأه الشعب وإنما لتشتريه خزانته . وهكذا بسعادة الوجيه تم له ما أراد. وعندما نشرت جريدة الثورة القضية- خلسة - في عددها (٥٧٥) مع نص قرار لجنة العلماء والمكتب القانوني القاضي بمصادرة الكتاب وحبس مرتكبي الجريمة سافر « بيدر » خصيصاً إلى الخارج وبطائرة الرئاسة ليشحن عليها أطنان الكتاب المنتحل ولينشر كتاباً آخر كتبه له مطهر الأرياني في القصر يتضمن الهجوم العنيف على كاتب هذه « البداية » مما اضطر هذا لمنازلته مع أشياعه فوقع رده على رؤسهم وقوع الصاعقة فلم يملكوا إلا أن أعلنوها عليه حرباً شعواء ، ولم يكتف بيدر بما فعل بل اتصل بالمؤلف تليفونياً ليهدده بالموت كما فعل غيره من مغاوير آل صديق خان .

وظل عكفة الأوبائى محدقين بمنزلى

امت فى صنعاء ثلة من عكفة[1] « الوجيه » بمداهمة منزلى ، وترويع أطفالى وأهلى ، بلى لقد هددوهم بنسف المنزل على رؤسهم إن لم يدلوهم على مكانى . وأصيبت امرأة فى الدار بهبوط فى القلب فاتصل إبنى بالإسعاف فلم يجرأ أحد من الاقتراب منه .

وظل العكفة محدقين بمنزلى يرعدون ويبرقون ، واتضح أن الخطة قد دبرت سراً بين « الوجيه » وعملائه « بيلدر » و « دهمش »[2] ، وأمثالهما على اختطافى وزجى سراً — كمن سبقنى — فى غياهب السجن المظلمة .

---

(١) العكفة : سبق تفسيرها .

(٢) كان هذا الشخص إلى وقت قريب يبيع الدجاج فأصبح بقدرة قادر العقل المفكر فى يمن الثورة والجمهورية . من يصدق أن دهمشاً أصبح الحاكم بأمر فى عصر « الوجيه » ؟ فكل شىء فى قبضته والكل تحت وطأته ، وهو يعمل باسم الدولة ما يريد ! ! . إن من يفكر فى أمر هذا الغـلام ويعرف ماضيه وحاضره ليؤمن بأن الغراب فى بلادنا يستطيع أن يتحول إلى بازمتىشاء ! ! والغريب أن الجميع لايقولون إلا بقول هذا المعتوه ولا يفكرون إلا بعقله أما إذا ساعدك الحظ ونفذت من بين الكتل البشرية المزدحمة على بابه لتمثل بين يديه وحوله أوباش رجرح ممن لفظتهم الأزقة وفشلوا فى كل مناحى الحياة فإنه ليذكرك بقصة « ساحر الشجعة » إن كنت تعرفها وأغرب من هذا أن أى شخص كان مركزه لايجسر حتى أن يفوه باسم « دهمش » إلا بالثناء العاطر حتى ولو قال له بلهجته الحوذية « يا مرفس » أو « يا مذفرى » فإن سألتنى . . . لماذا ؟ ؟ فأقول . . . إن كتابى ليتسامى ويشيح كسحاً .

واتجه إبنى إلى قصر « الوجيه » وفوجىء بنبأ مغادرته إلى « تعز » قبل وقت قصير من وصول جنوده إلى منزلى .

ألا ليت الرأى العام العالمى كان عقلاً يعى وضميراً ينبض ! ! على أنه وإن كان كذلك — فانّى ؟ وكيف ؟ فالأفواه فى « واق الواق »(١) لا تزال أشد كماً ، والأبواب إلى نسيم الحياة أعظم إيصاداً وإحكاماً . وهنا لك الحقوق تهتك والأعراض تنتهك ، بأيدى أقــوام كانت تسرى فى رؤوسهم حميّا الفخر والاعتزاز أن يقال لهم : أنتم شمامسة القصور واليوم أصبح كل منهم هو الآمر الناهى والثائر المتباهى ، وهو القانون والنظام وهكذا جاء بعد الإمام ألف إمام .

فترى الفتى منهم كأن برأسه نزغ الجنون فليس فيه لياق
متلون الأخلاق بين عشيرة — جهلاً — كما يتلون الشقراق(٢)

وبينا أفراد الشعب اليمنى يهوون بين براثن الفقر ، ويتساقطون فى أحضان المجاعات ، ويتناحرون على صفائح الماء فى شوارع صنعاء ، إذا بهذه الحفنة المدمرة تبنى

---

(١) للأستاذ محمد محمود الزبيرى كتاب عن اليمن نشره سنة ١٩٦٠ عنوانه : « مأساة واق الواق » راجع كتاب : « أسرار مأساة واق الواق » للمؤلف
(٢) البارودى .

القصور وتهرب الأموال ، وتغرق فى شهواتها وملذاتها إغراقاً فاجراً ، حتى لقد بلغت الفوضاء رقماً عالياً ، والقرص الرغيف ثمناً غالياً ، ولا ترى إلا برجوازيةتعوث وزهبانية تلوث ، وخزائن أفرغ من فؤاد موسى . هكذا أصبح حالنا الداخلى — بهذه العصابة — يتردى إلى أسفل ، أما تمثيلنـــا الخارجى فهو أزرى وأخجل ، وأما خريجونا العلميون — وهم من أنفقت عليهم البلاد أعزما تملك — فلا تراهم إلا فى الشوارع يهيمون ، وفى الأزقة يتسكعون ؛ إلا من يمت إلى أولئك بصلة قربى أو نسب فهؤلاء عمابين متأبط شيكات وجواب قارات . ولم يكن هنالك من الإنشاء والتعمير الحقيقيين إلا ما بنته الجمهورية العربية المتحدة ومبرات الصندوق الكويتى وجهود بعض المواطنين المصلحين .

ولا تسل كم ثورياً حطموه ، ومصلحاً نكلوا به وشردوه ، بمجرد رأى يزجيه أو نصح يسديه ، فهو إن كان عدنانياً قالوا . . هذا عدنانى دخيل . . وإن كان قحطانياً . . قالوا . . . هذا رجعى عميل . . .

* * *

إننى — كمواطن يؤمن بخير ما تنشده البشرية من محبة ووئام وديموقراطية وسلام — لأربأ بنفسى أن أنحدر بها

إلى مستوى هذه النعرات السخيفة[1] ، لولا ما لمسته من استشراء الداء وتفاقم البلاء ، بعد أن ظلت هذه العصابة الوصولية ردحاً من الزمن تنادى بها قولاً وتعمل على إذكائها سراً ، ثم ها هى أصبحت تنفذها ممارسة وفعلاً ، بل صارت تضع المخططات الرهيبة استعداداً للجولة الأخيرة — على حد تعبيرها — وبعد أن يتم لها التضليل التام على عقول الناس .

والشىء الذى لم يعد مكتوماً أن المخرفين من آل صديق — ويعتبرون أنفسهم زعماء المذهب الإسماعيلى[2] — أصبحوا يعتقدون بأن الوقت قد حان لإظهار مذهبهم الباطنى بعد أن ظل منكمشاً فى إريان خلال الثلاثة قرون الماضية — أى منذ أن قام الناصر صلاح الدين « ١٣٧٣ — ١٣٩٣ » ثم من بعده المنصور على بن صلاح « ١٣٩٣ — ١٤٣٦ » بالإجهاز عليه وهدمه فى وقائع لها شهرتها فى التاريخ اليمنى — وذلك بعد أن تأكدوا من أن « الوجيه » هو من اكتملت فيه شروط الدعوة ، وها هم قد وضعوا لذلك مخططاً مستوراً أكثر ملاءمة وأدق مرونة من مخططات أسلافهم من عند « ميمون القداح » إلى

---

(١) يعنى الدعوة الطائفية التى يتزعمها هؤلاء .

(٢) من أبرز نظريات الإسماعيلية قولهم بوجود العقل الكلى والجزئى فى إمامهم المقيم بالهند والملقب أغاخان .

عند «منصور الحوشبي» و «سليمان الزواحي» فتراهم يقولون للحركيين . . . نحن حركيون مثلكم ، ولكن الظروف تقتضي التريث فان ذلك أحكم للتجارب وأسلم للعواقب . . . ومثل ذلك يقولون للقوميين والبعثيين ، والشيوعيين . . . أما شعارهم المكشوف فهو إثارة القحطانيين ضد العدنانيين — عكس شعارهم الأول — باسم العنصرية لا باسم المذهبية لأن الكل زيديون ، ولكنهم اختاروا طريق العنصرية لأنها أقرب إلى التفرقة وأنجع للتحفيز والإثارة . .

وعند ما نشر كتابي «تاريخ الفكر الإسلامي في اليمن» سنة ١٩٦٧ — ويتضمن دراسات علمية عن المذاهب في اليمن ومن جملتها المذهب الباطني ودعاته علي من الفضل ، و «الحوشبي» و «الزواحي» — لم يمالكوا أن أقاموا ضدي حرباً شعواء ، على أني لم أورد في هذا الصدد إلا ما قاله مَن قبلي من مؤرخي اليمن وزاد من ضغينتهم كتيبات أخرى ظهرت مؤخراً تتعرض لمحمد صديق الفارسي — جدهم — وقصة انتقاله إلى اليمن في القرن الثاني عشر للميلاد ، وتستعرض بعض المعلومات عن هذه الأسرة قديماً وحديثاً وخلال دولة بيت حميد الدين بالذات ؛ فقد ظنوا بأن لي ضلعاً في إصدارها ، في حين أني لا أعلم عنها شيئاً ، بل لم أطلع

عليها حتى الآن . على أنهم يعلمون حق العلم – وبالأخص « الوجيه » نفسه والذى طالما ناقشنى وناقشته حول هذا الموضوع وغيره – أنى ممن يحارب هذه النعرات السخيفة ، وكثيراً ما دعوت من أجل الوحدة الوطنية حتى إلى إلغاء الألقاب وتوحيد الزى اليمنى ؛ بل تحريم ارتداء العمامة بالذات إلا لرجال المساجد وقضاة المحاكم ، وذلك بعد أن لمست تغلب مفسدتها على مصلحتها ، بل لقد أصبحت – مع الأسف ومع احترامى لعلماء اليمن الحقيقيين وفضلائه – وسيلة للدجل السياسى والتضليل التالهى ، ولكنهم بالرغم من ذلك لم يكتفوا بمصادرة هذا المؤلف – أو بمعنى أصح نهبه والاستيلاء عليه – بل قاموا بنشر كتيبات قذرة لم يقتصروا فيها على الهجوم علىّ بل تطاولوا إلى شخصيات تاريخية كان لها دور مشرف فى النضال الفكرى والوطنى من عند أول قرمطى عرفته اليمن إلى آخر تركى لفظته اليمن (١) .

* * *

ولن أدعك – يا قارئ – تتساءل عما انتهت إليه قصتى الأخيرة قبل أن أعلمك بأننى لم أعد أتسلم أى خطاب من أولادى ، ولقد كانت آخر رسالة تسلمتها تشير إلى أن « الوجيه » ،

---

(١) يعنى عندما أجلوا فى المرحلة الثانية بالقرن الخامس عشر للميلاد .

وزبانيته قاموا بتصرفات لا إنسانية أخرى منها قطع المرتب الذى هو المصدر الوحيد لقوتهم ، وأغلب الظن أنهم قد أوعزوا لأحد عملائهم فى مكتب البريد بالتصدى لرسائلى ، فقد جعلوا لهم فى كل جهة من الجهات ركائز تطبق خططهم وتنفذ أحابيلهم .

كل هذا يجرى على مرأى ومسمع من مجلسنا الوطنى الموقر ، الذى كان يعلق عليه الشعب اليمنى آمالاً جساماً فى القضاء على الانتهازية والوصولية ، والعناصر المفسدة ، أو على الأقل وضع نظام يكفل للفرد حريته وأمنه واستقراره ، وتطهير جهاز الدولة من العناصر الانتهازية والمستغلة ، لا أن يتيح لها مجالات أوسع وصلاحيات أكثر .

لعلمى بأن المجلس الوطنى يضم عدداً لا بأس به من أرباب العقل وأنصار الحق والعدل ، فقد بعثت إليه هذه الرسالة التى جعلتها خاتمة لبدايتى وهى — كما يراها القارئ — منصفة غاية الإنصاف ، مجردة عن العنت والاعتساف .

إلى هنا — يا قارئى — يقف شوط القلم ويفيض نبع الكلم ، ولست ممن يقول . . هذه حياتى ، وهى جديرة بأن يتعظ بعبرها ويقتدى بمثُلها ، بل من يقول . . إن البتّ

فيها يتوقف عليك ، والحكم فى أمرها منك وإليك ، فإن وجدتها طاهرة الذيل ناصعة الجبين ، فعليك بتأثرها « فان الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها التقطها » وإلا فانني أسأل الله أن يلهمني رشدى وأن يقيني شر نفسى ، إنه على كل شيء قدير ، نعم المولى ونعم النصير .

أول يناير سنة ١٩٧٠

أحمد حسين شرف الدين

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد رئيس المجلس الوطنى الشيخ الجليل عبد الله بن حسين الأحمر .

تحيـــة طيبة وبعـــد ،

فإنه لم يكتف آل صديق وأتباعهم « بنو الأكوع » « ودهمش » « وبيدر » بما قاموا به من سرقة مؤلفاتى ونهبها من المكتبات حتى قاموا مؤخراً — وفى غيابى — بإرسال مصفحة عليها ستة عساكر من عكفة « الوجيه صديق » إلى منزلى لترويع أطفالى بصورة يندى لها جبين الشرف والكرامة ، حتى لقد هددوهم بنسف البيت على رؤسهم .

لقد جعلت هذه العصابة من سلطتكم الوطنية سيفاً ذا حدين ، أحدهما إرساء قواعد التسلط ، وثانيهما شهر حراب الانتقام ممن يريدون ، ويتجلى الأخير فى الكتيبات التى ينشرونها والأعمال التى يرتكبونها من ترويع وعسف ،

وترويع واضطهاد ، وفى كلا الأمرين جعلوا - منكم كمحتضن لهم - رأس الحرية لتنفيذ مخططاتهم الجهنمية وأنتم لا تشعرون .

ولو قدر لكم أن تلتفتوا إلى ما يجرى فى الوزارات والدوائر الحكومية لوجدتم أن البلاد تنحدر إلى مهاوٍ سحيقة من الفوضاء والانتهازية والتدمير ، ويكفى دليلاً على ذلك أن « دهشاً » أصبح الحاكم بأمره فى بلادنا اليوم .

إننى على يقين من أن وطنيتكم لا ترضى بهذه التصرفات ومع هذا فلست أرجو غير شىء واحد أعتقد أنه طبيعى وعادل : هو أن يقوم المجلس الوطنى بالتحقيق الشامل فى تصرفات آل صديق المتكررة ضدى سواء ما ذكرته فى كتابى وما لم لم أذكره على أن يتولى المجلس حمايتى من عساكر «الإريانى» ومفرقعات «بيلر» التى طالما هددونا بها ، وإذا كان هذا جزاء من كرس حياته فى خدمة التاريخ اليمنى ونشر حضارته فما سيكون إذاً جزاء الخونة والمستغلين وقطاع الطرق ؟

وإذا كنا نعيب على حكم الإمام أن بعض الموظفين كان يغلط فيرسل جندياً قبل الإخطار فماذا نقول فى هؤلاء الناس الذى يداهمون منازل السكان لا عن سبب وإنما مجرد أغراض شخصية سخيفة ورواسب حقد دفين الأمر الذى

فما سيكون اذا جزاء خونة البلاد وقطاع الطرق ؟ ؟

يذكرنا بأبشع وسائل الإرهاب وشريعة الغاب فى القرون الوسطى .

هـــذا وسأكون فى إنتظار ردكم الصريح لوصولى ، للوقوف مع هؤلاء فى موقف العدالة وإذا كان لآل صديق أو غيرهم دعوىً علىّ فأنا على استعداد لانصافهم شريطة أن يضطلع بذلك المجلس الوطنى لاغيره .

وتقبلوا تحياتى وتمنياتى . . .

٢٥ ديسمبر سنة ١٩٦٩

كتب أخرى للمؤلف

- اليمن عبر التاريخ
- تاريخ الفكر الإسلامى فى اليمن
- أنســاب قبائل اليمن
- آثار معين وسـبأ
- لغـات اليمن القـديمة
- لهجات اليمن قديماً وحديثاً
- الطرائف المختارة من شعر الخفنجى والقارة ؟